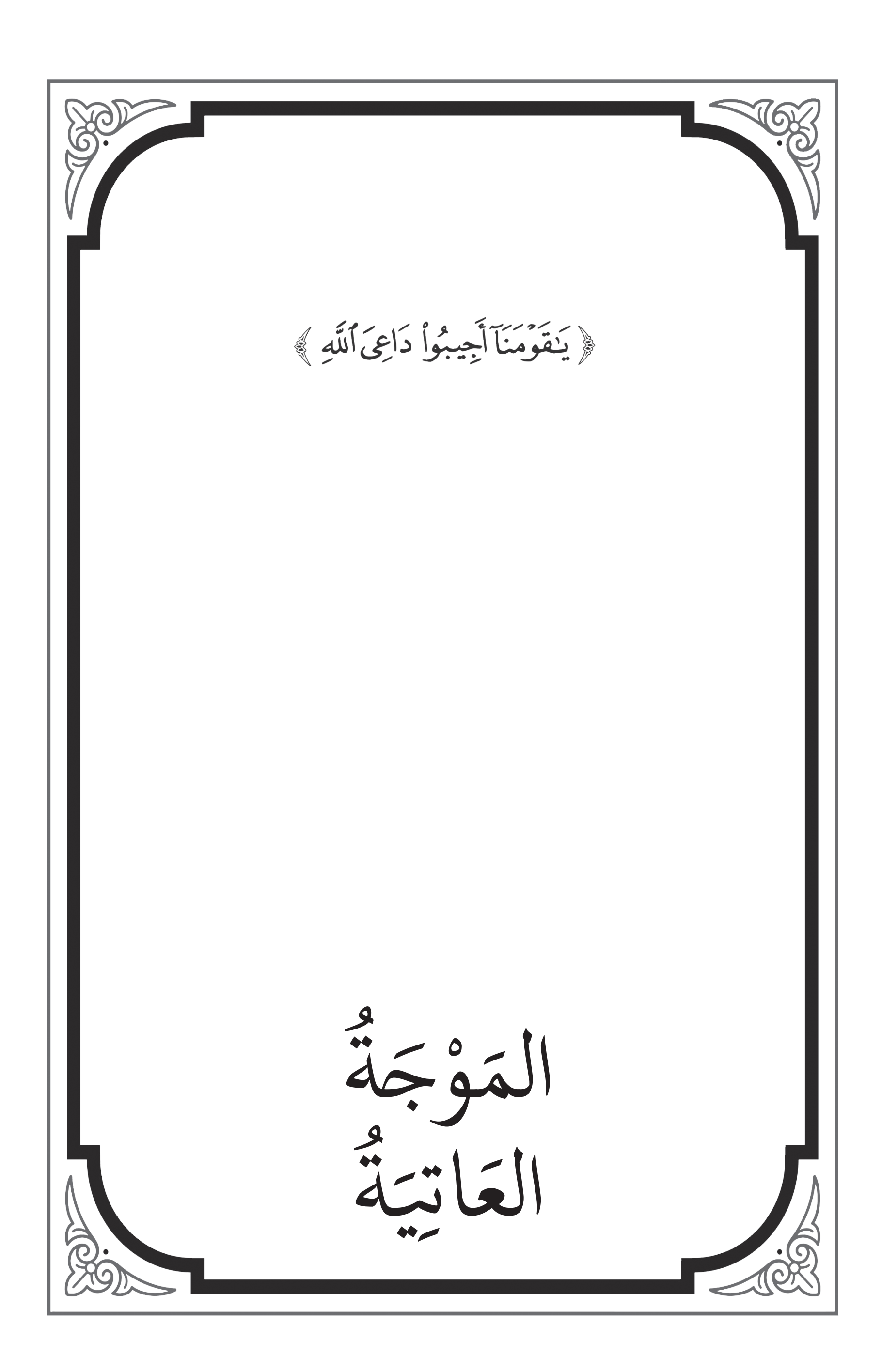
# المَوجةُ العاتيةُ

## التي حطت بالأمة الإسلامية

إعداد
علي العراقي

الغرباء
guraba



﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾

# المَوْجَةُ
# العَاتِيَةُ






ISBN: 978-625-8434-59-0

الطبعة الأولى
لمكتبة الغرباء
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

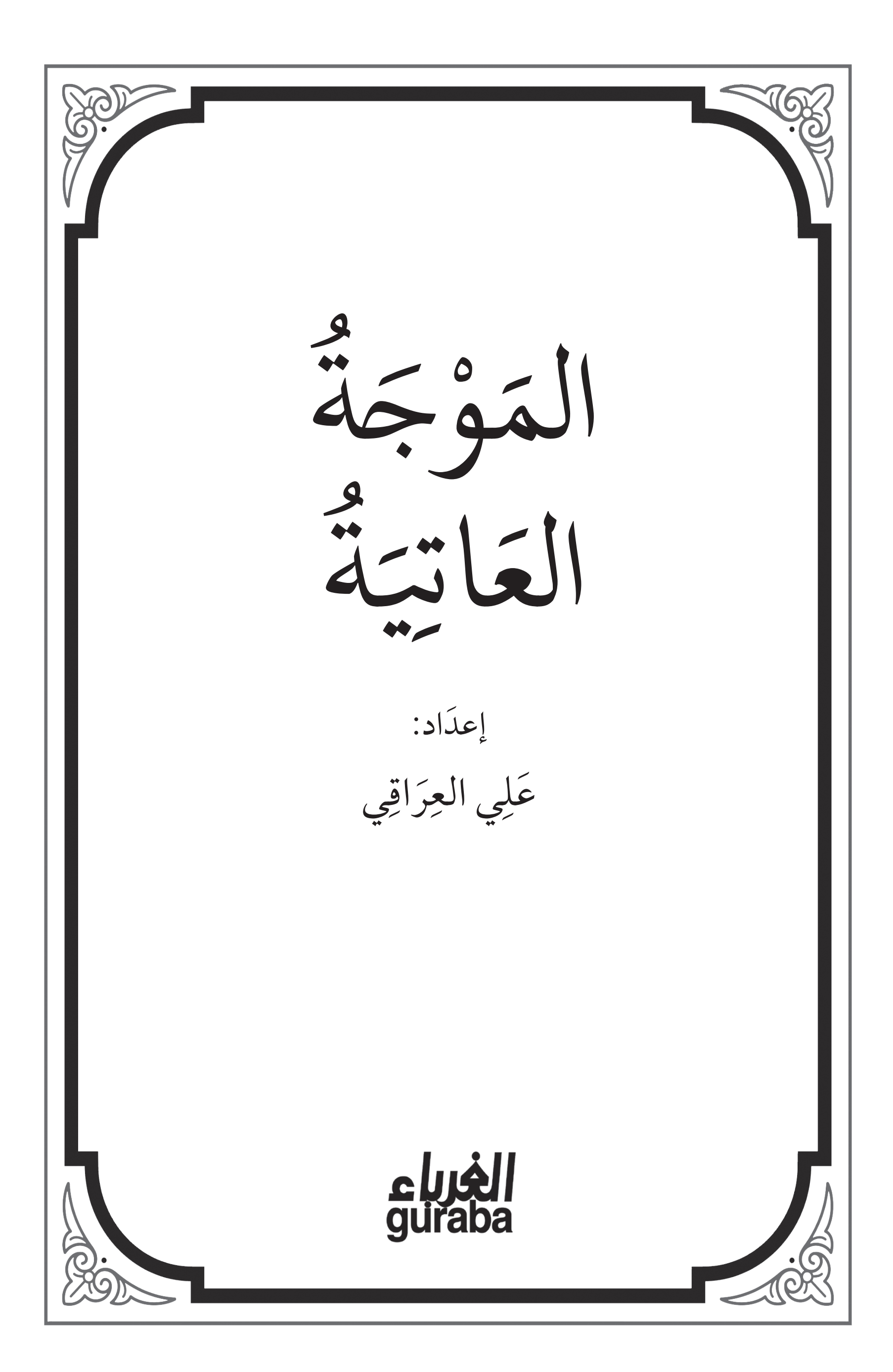
 **GURABA YAYINCILIK TİC. LTD. ŞTİ.** 

الدار الأثرية للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

Başakşehir Mh. Sabahattin Zaim Cad.
Life Park Evleri No: 8/G
Başakşehir/ İstanbul

مكتبة الغرباء | (+90) 212 526 06 05
@guraba_arabic | (+90) 536 065 04 04
@guraba_arabic | guraba@hotmail.com
@Guraba_Arabic | www.alguraba.com 

Baskı ve Cilt: Step Ajans Matbaacılık
İnönü Cad. No: 78 Bağcılar / İstanbul



# المَوْجَةُ العَاتِيَةُ

إعدَاد:

عَلِي العِرَاقِي

الغرباء
guraba

قَالَ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

[إِبْرَاهِيم: ٥].

# مُقدِّمَة

الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، والصَّلاةُ والسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ خَاتَمِ الأَنْبِياءِ والمُرسَلينَ، وعلَى آلِهِ وصَحْبِهِ ومَن وَالَاه إلى يَوم الدِّينِ.

قَال اللهُ عَزَّ وَجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الرُّوم: ٩].

تُشَكِّلُ دِرَاسَةُ الشَّخصِيَّاتِ التَّارِيخِيَّة حَلقَةً أَسَاسِيَّةً لِفَهمِ مَسرَحِ الحَيَاةِ النَّمُوذَجِيَّةِ، فَهُنَاكَ شَخصِيَّاتٌ تَارِيخِيَّةٌ ظَهَرَتْ عَبرَ العُصُورِ وفِي أَمَاكِنَ مُختَلِفَةٍ، قادوا الأُمَّةَ وأَنقذوا البشرية وصاروا قاربَ نجاةٍ لعصورٍ طويلةٍ وحدَّدوا مسارَ البشريَّةِ، لَكِنْ أصبَحَ اليَومَ مِنَ الصَّعبِ أَنْ يَتكَرَّرَ ظُهُورُهَا لَمَّا هَانَ أَمْرُ الأُمَّةِ، فَمِنَ الضَّرُورِيِّ مُوَاصَلَةُ المُذاكَرَةِ والاهتِمَامِ بِالكِتَابَةِ عَن الشَّخصِيَّاتِ الَّتِي سَاهَمَتْ فِي تَغيِيرِ مجَرَى الحَيَاةِ، ولَعِبَتْ دَورًا بَارِزًا فِي تحرِيرِ الإنسَانِيَّةِ مِنَ العُبُودِيَّةِ عَبرَ الأَزمَانِ، واعتَصَمُوا بِحَبلِ اللهِ وأَعَدُّوا العُدَّةَ وهُم مَرفُوعو الرَّأسِ نَحوَ العُلَى، كي يُرَفرِفَ عَلَمُ الإسلَامِ رَايَةُ التَّوحِيدِ.

فالمعرِفَةُ الحَقِيقِيَّةُ لِلتَّارِيخ أَمرٌ مُهِمٌّ يَفهَمُهُ ويَستَوعِبُهُ الإنسَانُ السَّويُّ الَّذِي جَعَلَه اللهُ خَلِيفَةً فِي الأرضِ لِيَتدبَّرَ ويَتَعَلَّمَ ويَبحَثَ ويُبْصِرَ، فَالتَّارِيخُ مَورُوثٌ ثَقَافِيٌّ وَحَضَاريٌّ وَدِينيٌّ تَرَكَهُ السَّلفُ لِيَبْصُرَ الخَلَفُ، فَكُلُّ إنْسَانٍ لَا بُدَّ وأَنَّه يَنتَمِي إلى تارِيخ مُعَيَّنٍ ولِحُقْبَةٍ مِن الزَّمَنِ، فَأُمَّتُنَا السَّابِقَة هيَ تَارِيخُنَا المَورُوثُ لَنا جِيلاً بَعدَ جِيلٍ عَبْرَ الرِّجَالِ وَالرُّوَاةِ المُؤرِّخِينَ[١] عَن وَاقِعِهِم وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِم مِن الأَحدَاثِ وَالسِّيَرِ وَالقَصَص، فَيلْزَمُ كُلُّ فَردٍ مَعرِفَةُ الوَقَائِع وَالأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَت عَبرَ العُصُور، لأن انهِيَارَ التَّعلِيمِ هُوَ انهِيَارُ الأُمَّةِ، ولهذا يجِبُ إدرَاكُ خُطُورَةِ الإهمَالِ أو تجَاهلِ دَورِ الفَردِ والأُمَّةِ فِي بِنَاءِ الأُسرَةِ والدَّولَةِ، وبِالأَخَصِّ أَفرَادَ الأمَّةِ الإسْلَامِيَّةِ.

نَتطَلَّعُ لِلتَّاريخِ لِنُدرِكَ مَا آلَتْ إلَيه أحوَالُ أمَّتِنَا من النَّتَائِجِ الإيجَابيَّةِ والسَّلبِيَّةِ، فَيَتَطَلَّعُ اللَّبِيبُ إلى الإيجَابِيَّاتِ لِيَكتَسِبَ التَّجرِبَةَ ويَسْتَغِلَّ الفُرصَةَ ويَنْهَضَ إلى القِمَّةِ، ويَعْتَبِرَ الحَكِيمُ مِنَ النَّكَبَاتِ والسَّلبِيَّاتِ، كَيْ لَا يَقَعَ فِي الهَاوِيَة مَرَّةً أُخرَى، فَفِي كُلِّ الأحوَالِ يَستَفِيدُ المَرء مِن أخبَارِ الانتِصَارَاتِ ويَعتَبِرُ مِن الهَزَائِمِ، فَالفُتُوحَاتُ والخُطَطُ المَيدَانِيَّةُ يُستَخرَجُ مِنها الدُّرُوسُ وَالعِبَرُ.

فَعِلمُ التَّاريخ عِلمٌ مُهِمٌّ لا يُمكِنُ إهمَالُهُ وَلَا استِئصَالُه، فَمِن قَصَصِ الغَابِرين نَتعَلَّمُ التَّجَارِبَ، فَالمُطَّلِعُ لِلتَّاريخ لَا بُدَّ وأَن تُحرِّكَ

(١) جاءَ عَن عَبد الله بنِ عمرو وأنس بنِ مَالك: قَيِّدُوا العِلمَ بِالكِتَابِ.

السَّاكِنَ عِندَهُ، وتُعِيدَ بِذَاكِرَتِهِ إلى أَيَّامِ أمجادِهِ وأجدَادِهِ، وتَنهَض بِالأُمَّة مِن كَبْوتِهَا، كَمَا وَتَستَقِيمُ الأُسرَةُ وَتُعِيدُ هيبَتَهَا، فَمَن أَرَادَ تَربيَةَ أولَادِهِ عَلَى الذَّكَاء فَعَلَيهِ أنْ يُطْلعَ أبنَاءَه عَلَى التَّارِيخِ وَلا يَستغنيَ عَنْهُ أَبَدًا.

نَستَخرِجُ مِن التَّاريخِ الحِكَمَ والأحكَامَ والشَّرَائِعَ والأمثَالَ وَنَتَعَلَّمُ السِّمَاتِ الحَسَنَةَ والتَّربِيَةَ السَّلِيمَةَ، حَيثُ تَرفَعُ المُستَوىٰ الأخلَاقِيَّ لِلفَردِ عقَائِديًّا وَسُلُوكِيًّا وَاجتِمَاعِيًّا، وَيُحَفِّزُهُم بِالارتِقَاءِ إلى القِمَّةِ ويَرفَعُ الهِمَّةَ، وَيَربطُ وَاقِعَ الفَردِ بِالتَّارِيخِ المَاضِي، وَبِالأَخَصِّ شبَابَ اليَومِ والنَّاشِئة الَّذِينَ عَزَفُوا عَن القِرَاءةِ، لا سيما قِرَاءَة التَّاريخِ، وَعَادَ التِزَامُهُم التِزَامًا شَكلِيًّا لَم يَعوا مِن الدِّينِ والعَقِيدةِ والأَخلَاقِ، وَلَم يَهتَمُّوا وَلَم يُفَرِّقُوا بَينَ الغَثِّ والسَّمِينِ، والصَّحِيحِ والشَّحِيحِ، وَمَا أَكثَرَ مَا انتَشَرت مَوَاضِيعُ وأَسَاطِيرُ ومُغَالَطَاتٌ جَافَّةٌ لَا أصلَ لَهَا، فوَلَّدَت أضرَارًا كَثِيرَةً لِصَاحِبِها، فَلَا بُدَّ لِكلِّ إنسَانٍ سَواء أَكَانَ من رِجَال الدِّينِ أو أَصحَابِ العُلومِ أو زُمرَةِ القَادَةِ والسَّاسَةِ، أنْ يعرف مَاضِيَه، لِتُتَجَنَّبَ الأخطَاءُ فِي الحَاضِرِ والمُستَقبَلِ.

ويَجِب على عُمُومِ الشَّبَابِ الاهتِمَامُ بِالتَّاريخِ والعِلمِ والتَّدوِينِ وكِتَابَةِ الوَقَائِعِ ودِرَاسةِ أحوَالِ الأُمَمِ السَّابِقةِ، سَواءٌ فِي العُلُومِ الشَّرعِيَّةِ والعَقَائِديَّةِ والمَذهَبِيَّةِ، أو فِي الآدَابِ والإعمَارِ والآثَارِ والفُنونِ.

إنَّ التَّاريخَ الإسْلامِيَّ يُمَثِّلُ جُزءًا مِن العَقِيدَةِ الإسْلَامِيَّةِ، فَعِلمُ التَّارِيخِ يُقَدِّمُ لَنَا أدِلَّةً وإثبَاتَاتٍ مَعَ البَرَاهِينِ لِلأحدَاثِ التي وَقَعَت

لِلشَّخصياتِ، ويُدلى بِمَسقَط رُؤوسِهِم، ويَسرُد أخبَارَ الدُّولِ والبُلدَانِ، فَالأحوَال والوَقَائِع والكَوَارِث الَّتِي سَبقَت، والإنجَازَات الَّتِي تَحَقَّقَت، والنَّكَبَات الَّتِي تَكَالَبت عَلَى الأمَّة مِن الاحتِلال وهَجَمات القُوى المُعَادِية، فَجَمِيعُ إسنَادِه ومُستَنَدَاتِه مُسَجَّل فِي التَّارِيخ.

فَالتَّارِيخ يُقَوِّي اعتِزَاز الإنسَان بِدِينِه وأُمَّتِهِ، فَطَمسُ التَّاريخ هُو بِمَثَابَة تَدمِير الأمَّة وقَطِع حَبل التَّواصل بَين المَاضِي والحَاضِر، كَمَا وأنَّه مِفْتَاح لِتَوثِيقِ حَقِّ الشَّعبِ وإثبَاتِ دِينِهِ وهوِيّتِهِ فِي أرضِهِ وبَلَدِهِ، فإنَّ مَا أصَابَ الأمَّة اليَوم مِن المَآسِي والأزمَات والنَّكَسَات مَا هُوَ إلا بِمَا كَسَبَت أيدِيهِم، لَكِنَّ بَعدَ العُسرِ يُسرًا إن صَبَرنَا وتَمَكَّنَّا، فَنَحنُ نَعِيش اليَوم تَحْتَ ظِلِّ أمجَادِنَا المُشرقة بِالعَدَالَةِ السَّمحَة، ونَأمُلُ أن يَأتِيَ يَومٌ نَنشُرُ فيه السَّلَامَ فِي رُبُوعِ الأَرْضِ ونَمحُوَ الظُّلم عَنِ المَظلُومِين.

غَايَتُنَا فِي هذا الكتابِ أن نُوعِّي الأمَّة لِنَنهَض ونَعُودَ بِها إلى حَضَارَتِنَا الإسْلَامِيَّة السَّامِية فِي القُرُون الأُولَى الزَّاهِرة بِخِدمَة الإنسَانِيَّة، لِترَى الأمَم والعَالَمَ مَا قَدَّمَتهُ الحَضَارةُ الإسْلَامِيَّة لِلشُّعُوبِ ولِلدُّوَل، لِتَستَنِيرَ البَشَرِيَّة ولِتعُمَّ الفَائِدةُ لِلجَمِيعِ، والقُرآنُ الكَرِيم مَلِيء بِالأحدَاث والقَصَص التَّارِيخِية، قَبل بَعثَة رَسُولِ الله ﷺ، نَسأل الله عَز وَجَل أن يَأتِيَ يَومٌ يُرَفرِفُ فِيه عَلَم الإسْلامِ، ويَحصَل الأمَان والسَّلَامُ وتُنصَب رَايَة التَّوحِيد فِي جَمِيع رُبُوع الأَرْضِ ويَنتَصِر الإسْلامُ.

إنَّ أَحَد الرُّمُوز الإِسْلَامِيَّة فِي التَّاريخ والشَّخصِية البَارِزَة فِي عَصرِ الخِلَافَة الرَّاشِدَة، الَّذِي قَادَ كَثِيرًا مِن المَعَارِك والغزَوَات ضِدَّ الكُفَّار والمُشرِكِين، هو الخَلِيفَة عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﵁، كَانَ رَجُلًا فَذًّا وصَاحِب فِرَاسَة، كَأَنَّهُ يَملِكُ مُنَبِّه إنذَار مُبَكِّر مِن الشَّر القَادِم لِلأُمَّةِ مِن الشَّرق، فَقَد تَنَبَّأَ بِمَخَاطِر الفُرسِ، وهو الَّذِي قَال عَنْهُم: (وَدِدتُ أَنَّ بَينَنَا وبِينَ فَارِس جَبَلًا مِن نَار).

فَتَح اللهُ عَلَى المُسلِمِينَ فِي عَهدِ خِلافَتِه مَن القُرَى والأمصَار مَا لا يُعدُّ ولايُحصَى، ومِن أَهَم المعَارِك والفُتُوحَات والوَقَائِع الَّتي حَدَثَت في عَهدِه فَتحُ البَصرَة والأُبُلَّة -مَرفَأ لِلسُّفُن القَادِمَة مِن الصِّين جُنُوبَ البَصرَةِ القَدِيمَةِ بِمَسَافَةِ خَمسَةَ عَشَرَ مِيلاً- ووَاقعَةُ الجِسر والأهوَاز ومَدِينَة بَهرسير والمَدائن وجَلولاء وقِنَّسرين وجَند ونيسَابور والسُّوس ورَامهرمز (مَدِينَة في خُوزِستَان) وقَيسارية، ووَقعَة صهاب وفَتَحُ مَدِينَةِ تكرِيت والمَوصِل، وواقعَة النَّمارِق ومَعْرَكَة كَاظِمَة (الآن فِي الكُوَيت) ومَعْرَكَة السُّقَاطِية بِكسكر ومَعْرَكَة بارُوسما ومَعْرَكَة البُوَيْب ومَعْرَكَة القَادِسيَّة وصُولاً إلى أَرَابْخَا (كَرْكُوك حاليًّا) وفَتَحُ تُستَر (أعظَم مَدِينَة في خُوزِستَان وهي مَدينَة شَشتَر)، ومَدِينَة جندى وسَابُور ومَعْرَكَة نَهَاوَنْد وفَتَح هَمَذَان وفَتَح الرَّي (طَهرَان حَالِيًّا).

وفَتَح قُوميس وجرجَان وآذَربَيجَان (كَلِمَة بِالفَارِسِيَّة تَعنِي أرضَ النَّار أو مَعَابِدَ النَّار)، والبَاب وغُوز خُرسان وفَتَح أصطخر وفَتَح

كَرمَان وسجستان، ومَا شَاءَ اللهُ مِن قُرى كَثِيرة، وانتَصَر عَلَى الكُفَّار والمَجُوس فِي كل هذه المَوَاقِع.

قال الإمَام الذَّهَبِيُّ رحمه الله: (واستَولَى المُسلِمُونَ فِي ثَلاثَة أعوَام عَلَى كُرسِيِّ مَملَكَةِ كِسرَى وعَلَى كُرسِيِّ مَملَكَة قَيصَر، وعَلَى أمَّي بِلادِهِمَا، وغَنِم المُسلِمُونَ غَنَائِم لَم يُسمَع بِمِثلِهَا قَط مِن الذَّهب والحَرِير والرَّقِيق فَسُبحَان الله العَظِيم الفَتَّاح)(١).

لَم يَعُد يَتَقَبَّل الفُرسُ كُلَّ هَذِهِ الهَزَائِم المُتكَرِّرَة، فَاضطروا للاستيلاءِ عَلَى الدِّيار الإسْلَامِيَّة بِمَكِيدَةٍ وخِدَاع ومَكر، وكُل الأنوَاع والأسَاليب غَيرِ الشرعِية، واتَّضَح لِلعَوَام كَيف أنَّ المَجُوس استَخدَمُوا الطَّوائِف الأقَلِّيَّة والشَّرِيحَة المُعَيَّنَة وفِرَقًا مُختَلِفَة لِيتَغَلغَلوا فِي صُفُوف المُسلِمِينَ، فَكَانَ بَاب التَّشَيُّع والإمَامِية شَرَّ سِلاحٍ لمُحَارَبَةِ الإسْلامِ والمُسلِمِينَ واتَّخَذُوا ذَرِيعَة المَظلُومِيَّة لِتَدمِير المُسلِمِينَ وَغَزوِهِم فِكرِيًّا وعَقَائِدِيًّا فَهُم لَم يُشَارِكُوا فِي اتِّسَاع الرُّقعَة الإسْلَامِيَّة وَلَو بِشِبر، كَمَا وَلَم يَتَأَخَّرُوا فِي مُصَالَحَة القُوى المُعَادِيَة للمُسلِمِين، فَكَانَوا كَالخَنجَر المَسمُوم فِي ظهرِ الأمَّةِ الإسْلَامِيَّة فَهُم كَموجَةِ البَحر المُنتَشِر آتِية خُفيَةً لِتُدَمِّر كُلَّ شَيء وتجعَلَ النَّهَار لَيلًا شَدِيدَ الظُّلمَة يَجرِفُ وَرَاءَهُ رُكَامًا ودَمَارًا ثُمَّ يَنهَار وَيَضمَحِل ويَعُودُ إلى أدرَاجِهِ لا يُبقِي ولايَذَرُ إلا الخَرَاب،

(١) تاريخ الإسْلام ووفِيات المَشاهير والأعلام ج٢ ص٦٢، للإمَام شَمسِ الدِّين مُحَمَّد بنِ أحمد بنِ عُثْمَان الذَّهبي التُّركماني المُتوَفَّى ٧٤٨ هـ.

ثُمَّ بَعدَ ذَلِك يَدخُل فِي سُبَاتٍ طَوِيلٍ لَا يَظهَرُ لِقُرُون ويَنتَظِرُ الفرصَة القَادِمَة كَي يُبرِز عَضَلَاتِه مِن جَدِيد بِتَموِيل مِن أسيَادِهِ لِيُصَارِعَ مَن يُخَالِفُهُ ولِهَذَا سَمَّيتُ كِتَابِي بِالمَوجَة العَاتِيَة.

أسأل اللهَ التَّوْفِيق والسَّدَاد لإتمَام رسَالَة **المَوْجَة العَاتِيَة**، وأَن أنفَعَ الخَلَقَ فِيمَا يَسَّر اللهُ تَعَالَى، وأقدِّمَ مَعلُومَاتٍ تَارِيخِيةً مُهِمَّةً ومُتَوَاضِعَةً ومُختَصَرَةً تنَاسِبُ الشَّبَابَ اليَوم، ونَسرُدُ بَعضَ وقائع وقَصَصِ الأبطَالِ المُجَاهِدِينَ الَّذِينَ شَارَكُوا فِي فَتَحِ العِراقِ وبِلاد فَارِسَ، وقَصَصَ مَن عَادُوا وحرروا الأَرَاضِيَ الإسْلَامِيَّة مِن احتِلال أعدَاء الإسْلامِ والمُسلِمِينَ مِن المَجُوسِ والبَاطِنِيِّين والبُوَيْهِيينَ والصَّفَوِيِّينَ بِفَضلِ اللهِ رَبِّ العَالَمِين.

**عَلِي العِرَاقِي**

٢٩/ ١٠/ ٢٠٢٢

٤/ ٤/ ١٤٤٤

# الفَصْلُ الأوَّلُ

## المُثَنَّىٰ بِنُ حَارِثَة الشَّيبَاني رضي الله عنه.

هو المُثَنَّىٰ بْنُ حَارِثَة بن سَلمة بنِ ضَمْضم بنِ سَعدِ بنِ مُرَّةَ بنِ ذهلِ بنِ شَيبانَ، وبنُو شَيبان فَرعٌ مِن قَبِيلة بَكر بنِ وَائل، وَيَمتَدُّ نَسَبُهُم حَتَّى عَدنَان جدِّ النَّبي صلى الله عليه وسلم.

وهُو مِن أوَائِل مَن حرَّضَ المُسلِمِينَ عَلَى المُهاجَمة وَخَوض المَعَارك ضِدَّ الفرس فِي عُقرِ دَارِهِم، وَمَهَّدَ الطَّرِيق لِفَتح العِراق، وَهَوَّنَ مِن أمرِ الفُرس وَهَيبَتِهم، وَكَانَ حَكِيمًا فِي قَومِه.

رَفَع المُثَنَّىٰ هِمَّة المُسلِمِينَ، وَأحْبَطَ وَ شَتَّتَ عَزِيمَة الفُرس، فِي الوَقتِ الذي كَانَ فيه الفُرس يُحَرِّضُون وَيُشَجِّعُون المُرْتَدِّين بَعدَ وَفَاة النَبي صلى الله عليه وسلم عَلَى الرِّدَّة، فَقَاوم المُثَنَّىٰ الدَّسَائِس وَفِتَن المَجُوس حَتَّى قَضَى عَلِيهم، وَوَضَع يَدَهُ عَلَى القَطِيفِ وَهَجَرَ حَتَّى وَصَل إلى مَصَبِّ التِقَاء الفُرات ودِجْلَة، فَجَمِيع أفْعَالِ المُثَنَّىٰ وَتَخْطِيطُهُ العَسكَرِي كَانَ يُمَهِّدُ الطَّرِيق لِفَتحِ العِراق ويَتسَبَّبُ فِي إسقَاطِ الإمبرَاطُورِيَّة الفَارِسية.

ومِن أهَمِّ المَعَارِكِ الَّتي خَاضَها المُثَنَّىٰ مَعْرَكَة البُوَيْب، حَيثُ هَيَّأ

أركَانَ الجَيش لِخَوْض مَعْرَكَة القَادِسِيَّةِ، والَّتِي أدَّت إلى انهِيَار وانتِهَاء الإمبِرَاطُورِيَّةِ الفَارِسيَّةِ، وَبِالفِعل فَقَدَتِ الإمبِراطُورِيَّة الفَارِسية الأَرَاضِي العِراقِيَّةَ لِصَالِحِ المُسلِمِينَ إلى الأبَدِ.

قَال عَنْهُ ابنُ الأثِير الجَزرِي فِي كِتَاب أُسدِ الغَابَةِ: (أبلَى فِي حُرُوبِ العِراقِ بَلاءً لَمْ يُبْلِهِ أحَدٌ).

وذَكَرَ الإمَامُ أبِو الحَسَنِ البَلاذري: كَانَ المُثَنَّىٰ بنُ حَارِثَة بنِ سَلمة بنِ ضمضم الشَّيبَانِي يُغيرُ عَلَى السَّواد (وهي مَنطقَةُ الكُوفَةِ والبَصْرَةِ ومَا بَينَهُمَا، وفِيها كَثِير مِنَ القُرى والرَّسَاتِق، سُمِّيَ سَوادًا لِخُصُوبَتِه، فالزَّرعُ مِن الخُصُوبة يَكون أخْضَرا دَاكِنًا يَمِيل إلى السَّوادِ) مَعَ رِجَالٍ مِن قَومِه فَبَلَغَ أبَا بَكرٍ الصِّدِّيق ﵁ خَبَرَهُ فَسَأل عَنْهُ. فَقَال لَهُ قَيسُ بنُ عَاصِم بن سِنَان المِنقَري: هَذا رَجُل غَيرُ خَامِلِ الذِّكرِ وَلا مَجْهُولِ النَّسَبِ وَلا ذَلِيلِ العِمَادِ: هَذا المُثَنَّىٰ بنُ حَارِثَة الشَّيباني. ثُمَّ إنَّ المُثَنَّىٰ قَدِم عَلَى أبِي بَكرٍ فَقَال لَهُ: يَاخَليفَة رَسُولِ الله ﷺ استَعْمِلنِي عَلَى مَن أسْلَمَ مِن قَومِي أُقَاتِل هَذه الأعَاجِم مِن أهْلِ فَارِس.

فَكَتَبَ لَه أَبُو بَكرٍ فِي ذَلِكَ عَهدًا فَسَارَ حَتَّى نَزَل خَفَّان (مَوضِع قُرب الكُوفَة) وَدَعَا قَومَهُ إلى الإسْلامِ فَأسلَمُوا، ثُمَّ إنَّ أبَا بَكرٍ ﵁ كَتَبَ إلى أَبِي سُلَيمَان خَالِدِ بْنِ الوَلِيْدِ بنِ المُغِيرَة المَخزُومِي القُرَشِي الَّذِي لَقَّبَه رَسُولُ الله ﷺ بِسَيفِ اللهِ المَسلُولِ يأمُرهُ بِالمَسِير إلى العِراق، وَيُقَال:

بَل وَجَّهَهُ مِن المَدِينَةِ وَكَتَبَ أَبُو بَكرٍ إلى المُثَنَّىٰ بنِ حَارِثَة يَأمُرُهُ بِالسَّمعِ والطَّاعَةِ لَهُ وتَلَقِّيه، وَكَانَ مَذعور بنُ عَدي العِجلي قَد كَتَبَ إلى أَبِي بَكرٍ يُعْلِمُه حَالَه وحَالَ قَومِه وَيَسـأَلُهُ تَولِيَتَهُ قِتَال الفُرس، فَكَتَب إلَيهِ يَأمُرُهُ بِأن يَنضَمَّ إلى خَالِدٍ فَيُقِيمَ مَعَهُ إذَا أَقَامَ وَيشخُص إذَا شَخصَ[1].

وقال ابنُ الأثير الجَزرِي فِي أُسدِ الغَابة: (أطمَعَ- المُثَنَّىٰ - أَبَا بَكرٍ الصِّدِّيق والمُسلِمِينَ فِي الفرس وهَوَّن أمرَ الفرس عِندَهم ).

وَقَال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: مُؤمِّر نَفسِه.

قِيل: كَانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ يَقَول لَمَّا أُخِذَت الأهْوَاز وَمَا يَليها: وَددتُ أنَّ بَينَنَا وبَينَ فَارس جَبَلًا مِن نَارٍ لَا نَصِل إلَيهِم مِنهُ ولَا يَصِلُونَ إلينَا[2].

اسْتَمَرَّ المُثَنَّىٰ بِالهجُوم عَلَى جُنُوب العِراق حَتَّى أَرسَلَ أخَاه مَسْعُودًا إلى أَبِي بَكرٍ يَطْلُبُ العَوْن فَأَرسَلَ خَالِدَ بْنَ الوَلِيْدِ عَلَى أن يَتَوَلَّى قِيَادَة الجَيش العُليا، وحَمَلَ الرَّايَة، وَانْطَلَقَ المُثَنَّىٰ وَالتَحَق بِلِوَاءِ خَالِدِ بنِ الوَلِيْدِ وَكَانَ اعْتِمَادُ خَالِدِ بْنِ الوَلِيْدِ عَلَيه فِي الحَرب عَلَى الفُرسِ

---

(١) كِتاب فُتُوح البُلدَان، تأليف الإمَام أبِي الحَسن أحمد بنِ يحَيى بنِ جَابر البَلاذري، المُتوَفَّى ٢٧٩ هـ/ ص ١٤٦-١٤٧.

(٢) الكَامِل فِي التَّاريخ ص٣٨٢/ ج٢، للإمَام العَلامة عُمدة المُؤَرِّخين أبو الحسن عَلي بنُ أَبِي الكَرم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بنِ عَبد الكَريم بنِ عَبد الوَاحد الشِّيبَاني المَعرُوف بابنِ الأَثِير الجَزري المُوصِلِي المُلَقَّب بِعِزالدِين، المُتَوفَّى ٦٣٠ هـ.

لِشَجَاعَتِه وَعِلْمِه بِأَسَالِيبِ الفُرسِ ودَسَائِسِهِم، وَعَلَى اطلَاعٍ كَامِل بِأَحْوَالِهِم، لأَنَّ قَبِيلَتَهُ كَانَت مِن سُكَّانِ المَنْطِقَة الوَاقِعَة تَحْتَ سَيْطَرَة الحُكْم الفَارِسِي.

قَاتَل المُثَنَّىٰ وشَارَكَ فِي جَمِيع المَعَارِك الَّتِي خَاضَها خَالِدُ بْنُ الوَلِيْدِ فِي العِراق، سَواء كَان قَائِدًا أو تَحتَ قِيَادَة خَالِدٍ، وَكَانَ يَرْصُدُ حَرَكَاتِ الفُرسِ لِصَالِح القَائِد العَام خَالِدِ بْنِ الوَلِيْدِ، وبَعدَ هَزِيمَة الفرس أَمَام المُسلِمِينَ فِي مَعْرَكَة كَاظِمَة (الآن فِي الكُويت) لَاحَقَ المُثَنَّىٰ الهَارِبين وَطَارَدَهُم قَبْل أن يَبْلُغوا المَدَائِن، كَمَا وَشَارَكَ المُثَنَّىٰ مَعَ خَالِدٍ فِي مَعْرَكَة المَزار، وَفِي فَتْح الحِيرَة والأَنْبَار، وأغَارَ على سوق بَغداد (كَانَت قَرية يَومَذَاك) وهَزم جُنْدَهُم، وَكَانَ فِي أَيَّامَ مَمْلَكَةِ العَجَم فِي بَغداد قَرْيَة يَجتَمِع فِيها التُّجَّار رَأس كُلِّ سَنَة، وَيُقَام لِلفُرسِ سُوق عَظِيم، فَقَامَ بِتَرتِيب خُطَّة هُجوم عَلَى العَدُو الفَارِسِي.

غَادَرَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيْدِ العِراق إلى الشَّام وأَخَذَ مَعَه نِسْبَة غِيرَ قَلِيْلَة مِن الجُنود، وبَقِيت نِسبَة جنود المُثَنَّىٰ قَليلة مُقَارَنة مَعَ نِسْبَةِ قُواتِ الفُرس.

وبَعدَ رَفْعِ شَهرَ بَراز بن أزدشير عَلَى العَرش زَال الخِلَافُ بَين قَادَةِ جَيْش الفُرس وكَانَ هَمُّهُم الوَحِيد هُو إجلَاء المُسلِمِينَ عَن أَرْضِ العِرَاق، لِذَا شَعَرَ خَالِدٌ بِخطُورة الوَضع، فَقَررَ الرُّجُوع وإجْلَاء الصِّبيَان والنِّسَاء والعَجَائِز مِن الرجَالِ مِن مَوَاقِعَ قَرِيبَةٍ مِن خَطِّ الاشتِبَاك.

بَلَغَ المُثَنَّىٰ أخْبَارٌ بِتَحْشِيدِ الفُرسِ لِمُهَاجَمَةِ المُسلِمِينَ فَأمَرَ جَيشَهُ بِالرَّحيلِ حَتَّى بَلَغَ بَابِلَ (مَدِينَة أثَرِيَّة فِي جُنُوبِ العِرَاق).

أَرسَلَ مَلِكُ الفُرس شَهرَ بَرَاز رِسَالَة مُوَجَّهة إلى المُثَنَّىٰ يَذكُرُها ابن الجَوزِي فِي كِتَابه قَائلاً: اسَتَقَامَ أمرُ فَارِسَ عَلَى شَهر بَراز بن شَهر يَار، فَوَجَّه إلى المُثَنَّىٰ الَّذِي استَخلَفَه خَالِدٌ عَلَى العِراق جُندًا عَظيمًا عَليهم هُرمُز بِنُ جَاذَوَيه فِي عَشَرَة آلاف وَمَعَهُ فِيل وَكَتَبَ مسَالح المُثَنَّىٰ إلَيهِ بإقبَال العَدُو، فخَرَجَ المُثَنَّىٰ مِن الحِيرَةِ نَحوَه وَضَمَّ إلَيهِ المَسالح وأقَام بِبَابِل وأقبَل هُرمُز بنُ جَاذَوَيه وكَتَب إلى المُثَنَّىٰ: إنِّي قَد بَعَثتُ إليك جُندًا مِن وَخَش (ذَلِيل) أهْلِ فَارِس إنَّما هُم رُعاة الدَّجَاجِ وَالخَنَازِير، فَلَستُ أُقَاتِلُكُم إلَّا بِهِم. فَأجَابَه المُثَنَّىٰ: إنَّ الَّذِي يَدُلُّ عَليهِ الرَّأي أنَّكُم اضطُررتُم إلى ذَلك، فَالحَمد لله الَّذِي رَدَّ كَيدَكُم إلى رُعاة الدَّجاج والخَنَازِير.

فَجَزع أهْل فَارِس مِن كِتَابه وَقَالوا: جَرَّأت عَلَينَا عَدُوَّنَا.

فَالتَقَوا بِبَابِلَ فَاقتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، ثُمَّ إنَّ نَاسًا مِن المُسلِمِينَ قَصَدُوا الفِيلَ وقَتَلوهُ فَانهَزَمَ أهْلُ فَارِس، واتبَعَهُم المُسلِمُونَ يَقْتُلونَهم، ومَات شَهر بَراز حِين انهَزم هرمز بنُ جَاذَوَيه[1].

(١) المُنْتَظم فِي تَاريخ المُلوك والأمَم ج٤ ص١٢٣- ١٢٤ لأبِي الفَرج عَبد الرَحمن بن عَلي بن مُحَمَّد ابن الجَوزي، المُتَوَفَّى سَنَة ٥٩٧هـ.

وقَال أَبُو جَعفَر الطَّبَرِي ﵀: وَلـمَّا رَجَع الجَالنوس إلى رُستُم وَمَن أفلَت مِن جُنُودِه، قَال رُستُم: أيُّ العَجَمِ أشَدُّ عَلَى العَرب فِيمَا تَرَون؟ قالوا: بَهمَن جَاذَوَيْه؛ فَوَجَّهَه وَمَعَه فِيَلَةٌ وَرَدَّ الجَالِنُوس مَعَهُ، وَقال لَه: قَدِم الجَالنوس، فَإن عَادَ لِمثلهَا فَاضرِب عُنُقَه، فَأقبَل بَهمَن جَاذَوَيه وَمعَهُ دَرفش كَابيان رَاية كِسرَى - وَكَانَت مِن جُلُود النَّمِر، وَعَرض ثَمانية أذرُع فِي طُول اثنَي عَشَر ذِراعًا - وأقَبل أَبُو عُبَيْدٍ، فَنَزَل المروحة، مَوضِع البُرج والعَاقُول، فَبَعَث إلَيه بَهمَن جَاذَوَيه: إمَّا أن تَعبُرُوا إلينَا وَنَدَعُهم والعُبُور، وإمَّا أن تَدعُونَا نَعبُر إليكُم؟ فَقَال النَّاس: لَا تَعبُر يَا أبَا عُبَيْدٍ، يا أبَا عُبَيْدٍ نَنهَاك عَن العُبُور. وَقَالوا لَه: قُل لَهُم: فَليَعبُرُوا - وَكَانَ مِن أشَدِّ النَّاس عَلَيه فِي ذَلك سَليط - فَلَجَّ أَبُو عُبَيْدٍ، وَترك الرَّأي، وَقَال: لا يَكونُون أجْرَأ عَلَى المَوت مِنَّا؛ بَل نَعبُر إليهم فَعبَروا إلَيهم وَهُم فِي مَنزِل ضَيق المطرد والمذهب، فاقتَتَلُوا يومًا - وأَبُو عُبَيْدٍ فِيما بَين السِّتة والعَشَرَةِ - حَتَّى إذا كَانَ مِن آخِر النَّهَارِ، واستَبطَأَ رَجُلٌ مِن ثَقيف الفَتح ألف بَين النَاس فَتَصَافَحوا بالسُّيوف وضَرب أَبُو عُبَيْدٍ الفِيلَ، وخَبَطَ الفِيل أبَا عُبَيْدٍ، وقد أسرَعَت السُّيوف فِي أهلِ فَارِس، وأُصِيبَ مِنهُم ستَّة آلافٍ فِي مَعرَكَةٍ، وَلَم يَبقَ ولَم يَنتَظر إلا الهَزيمَة، فَلَمَّا خُبِطَ أَبُو عُبَيْدٍ، وَقَامَ عَلَيْهِ الفِيلُ جَالَ المُسلِمُونَ جَوْلَة، ثَمَّ تَمُّوا عَلَيهَا، وَرَكِبَهُم أهلُ فَارِس، فَبَادَرَ رَجُلٌ مِن ثَقِيف إلى الجِسْرِ فَقَطَعَه، فانتَهَى النَّاس إلَيهِ والسُّيُوفُ تَأخُذُهُم مِن خَلفِهِم، فَتَهَافَتُوا فِي الفُرَات، فَأَصَابُوا يَومَئِذٍ

مِن المُسلِمِينَ أربَعَةَ آلَافٍ؛ مِن بَينِ غَرِيقٍ وقَتيل، وَحَمى المُثَنَّىٰ النَّاسَ وَعَاصِم والكَلَج الضبي وَمَذعُور، حَتَّى عَقَدوا الجِسر وَعَبَّروهُم، ثَمَّ عَبَروا فِي آثَارِهِم، فَأَقَامُوا بِالمَروَحَة والمُثَنَّىٰ جَريحٌ، والكَلَج ومَذعُور وَعَاصِم – وكَانَوا حماة النَّاس- مَعَ المُثَنَّىٰ، وَهَرب مِن النَّاس بَشَرٌ كَثِير عَلَى وُجُوههم؛ وَافتضحُوا فِي أنفُسِهِم، وَاستَحيوا مِمَّا نَزَل بِهم، وَبَلَغَ ذَلك عُمَرَ عَن بَعض مَن أَوَى إلى المَدِينَة فَقال: عِباد الله! اللهُم إنَّ كُل مُسلم فِي حِلٍّ مِنِّي، إنَّا فِئَة كُل مُسلم، يَرحَم اللهُ أبَا عُبَيْدٍ! لَو كَانَ عَبَرَ فَاعتَصَم بِالخِيف، أو تَحَيَّز إلَينَا وَلم يَستَقتِل لَكُنا لَه فِئة! وَبينَما كان أهل فَارِس يُحاوِلون العُبُور أتَاهُم الخَبر أنَّ النَّاس بِالمَدَائِن قَد ثَارُوا بِرُستُم، وَنَقَضُوا الَّذِي بَينَهُم وَبَينَهُ فَصَارُوا فِرقَتَين: الفهلُوج عَلَى رُستُم، وَأهل فَارِس عَلَى الفيرزان؛ وَكَانَ بَين وَقعة اليَرموك والجِسر أربَعُونَ لَيلَة[1].

استَمَرَّت المَعرَكَة وَجعَل المُثَنَّىٰ أحدَ إخوَانِه عَلَى يَمين الجَيش وَهُو المعنَّى بنُ حَارِثَة، والآخر عَلَى يَسَار الجَيش وَهو مَسعُود بن حَارِثَة، وَكَانَ أَكثَرُ جُنْدِهِ مِن قَومِهِ وَكَانَ اعتِمَادُ الفُرس فِي الحَرب عَلَى الفِيلة المُدَرَّبة أحسَن تَدرِيب، وبَدَأت الحَربُ وَكَانَ دَورُ الفِيل كَبيرًا فِي تَفرِيق صُفُوفِ المُسلِمِينَ وَلايَصمُدُ الخَيل أمَامَ الفِيل مُرعبِ الشَّكلِ، فيصيبُ المُسلِمِينَ إربَاكٌ وَفَزَع.

---

(١) تَارِيخَ الرُّسُل والمُلُوك/ ج٢/ ص٢٣٢-٢٣٤، لأبِي جَعفَر محمَّد بنِ جَرِير الطَّبري المتوفى ٣١٠هـ.

هَجَم المُثَنَّىٰ وأصحَابُه عَلَى الفِيلِ فَأصَابوا الفِيلَ وَقَتَلُوه وَكَانَ مِن أشَدِّ المُسَانِدِين لِلفُرس فَأخَذَ جَيشَ الفُرسِ رُعبٌ كَبيرٌ وَتَحولت المَعرَكَة لِصالحِ المُسلِمِينَ وَبَدَأت هَزيمَة الفُرس وَتَابَعَهُم المُسلِمُون وأَبَادُوهم عَن آخِرهِم، وَاستَمَرّتِ المُطَارَدَة حَتَّى وَصَلوا أبْواب المَدَائنِ وَفَرَّ قَائِدُهُم هُرمز جَاذَويه وَانتَشَرَ خَبَر مَوتِ مَلِك شَهر بَراز وَزَادَهُم هَذا الخَبَرُ خَوفًا وَرُعبًا وَارتِبَاكًا.

أرسل المُثَنَّىٰ بَعدَ انتِصَار جَيشه رِسَالَة إلى أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه يُخبِرُه بِانتِصَار المُسلِمِينَ عَلَى الفُرس.

خَرَجَ المُثَنَّىٰ مِنَ العِراقِ مُتَّجِهًا إلى المَدِينَة المُنَوَّرَة، وَوَصَل قَبل وَفَاة الخَلِيفَة أَبِي بَكرٍ رضي الله عنه بِيَومٍ وَاحِد، وَقَدْ أوصَى عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه أن يَندُبَ النَّاسَ مَعَ المُثَنَّىٰ، وَلمَّا تُوفِّي أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه واستَخلَف عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه وعَزَمَ النَّاس عَلَى قِتَال الفُرس وَكَانَوا مِن أكرَه النَّاسِ إلَيهِ، لِمَا لَهُم من شَوكَة وَشِدَّة وَعِنَادٍ فِي القِتَال فَقَام المُثَنَّىٰ يُهَوِّنُ الأمرَ عَلَيهِم.

قَال ابنُ الأثِير: وأبطَأ خَبَرُ أَبِي بَكرٍ عَلَى المُثَنَّىٰ فَاستَخلَف عَلَى المُسلِمِينَ بَشِيرَ بنَ الخَصَاصِيَّة، (وَوَضَعَ مَكَانَه فِي المَسَالح سَعيدَ بنَ مُرةَ العجْلِي) وسَارَ إلى المَدِينَةِ إلى أَبِي بَكرٍ لِيُخبِرَهُ خَبَرَ المُشرِكِين، وَيَستَأذِنَهُ فِي الاستِعَانَةِ بِمَنْ حَسُنَت تَوبَتُه مِن المُرتَدِّين

فَإِنَّهُم أنشَطُ إلى القِتَالِ مِن غَيرِهِم فَقَدِم المَدِينَة وأَبُو بَكرٍ مَرِيض قَد شُفي، فَأخبَرَهُ الخَبَرَ.

فَاستَدعَى عُمَرَ وَقَال لَهُ: اسمَع يَا عُمَرُ مَا أقُولُ لَكَ، ثُمَّ اعمَلْ بِهِ إنِّي لأرجُو أن أمُوتَ يَومي هَذا - وَذَلك يَومَ الإثنَين - فَإذا مِتُّ فَلا تُمسِيَنَّ حَتَّى تَندُبَ النَّاسَ مَعَ المُثَنَّىٰ، وإنْ تأخرتُ إلى الليلِ فلا تصبحنَّ حتى تندبَ الناسَ معه، ولَا تَشْغَلَنَّكُمْ مُصِيبَةٌ عَنْ أَمْرِ دِينِكُمْ وَوَصِيَّةِ رَبِّكُمْ؛ فَقَد رَأيتُنِي مُتَوَفَّى رَسُولِ الله ﷺ ومَا صَنعتُ، وَمَا أُصِيبَ الخَلق بِمِثلِه، وَإِذَا فَتَح اللهُ عَلَى الشَّام فاردد أهلَ العِراقِ إلى العِراق فإِنَّهم أهله، وَولَاة أمرِه، وَأَهْلُ [الضراوةِ بهم] والجُراءةِ عَلَيْهِمْ.

وَمَاتَ أَبُو بَكرٍ رضي الله عنه لَيلًا، فَدَفَنَهُ عُمَرُ، وَنَدَبَ النَّاسَ مَعَ المُثَنَّىٰ، وَقَال عُمَرُ: قَد عَلِم أَبُو بَكرٍ أَنَّهُ يَسُوءُنِي أن أُؤمِّر خَالِدًا فَلِهَذَا أَمَرَنِي أَنْ أَرُدَّ أَصْحَابَ خَالِدٍ، وَتَركَ ذِكْرَهُ مَعَهُمْ.(١)

وقال الطَّبَرِي فِي تَاريخ الرُّسُل والمُلُوك: قَالوا: أوَّل مَا عَمِل بِهِ عُمَرُ رضي الله عنه أن نَدَب النَّاس مَعَ المُثَنَّىٰ بنِ حَارِثَة الشَّيبَاني إلى أهل فَارِس قَبل صَلاة الفَجر، مَن الليلة الَّتِي مَات فِيها أَبُو بَكر رضي الله عنه، ثُم أصبَحَ فَبَايَع النَّاس، وَعَادَ فَنَدَبَ النَّاس إلى فَارِسَ، وَكَانَ وَجهُ فَارِسَ مِن

---

(١) الكَامل فِي التَّارِيخ/ ج٢/ ص٢٦٣-٢٦٤، للإمَام العَلامة عُمدَة المُؤرخين أبي الحَسن عَلي بنِ أبِي الكَرم مُحَمَّد بنِ مُحَمَّد بنِ عبد الكريم بنِ عَبدِ الكَريم بنِ عَبد الوَاحِد الشَّيبَانِي المَعرُوف بابنِ الأثِير الجَزْرِي المُلقب بِعِزِّ الدِّين.

أكْرَه الوُجُوه إلَيهِم وأثقَلِها عَليهِم، لِشِدَّة سُلطَانِهِم وَشَوكَتِهِم وَعِزِّهم وَقَهرِهِمُ الأُمَم.

وعن القَاسم بنِ مُحَمَّد قال: وتَكَلَّم المُثَنَّىٰ بنُ حَارِثَة فَقَال: يَا أَيُّهَا النَّاس، لَا يَعظُمَنَّ عَليكم هَذا الوَجه (أي الفُرس)؛ فَإِنَّا قَد تَبَحبَحنَا رِيف فَارِس، وَغَلَبنَاهُم عَلَى خَيرِ شقَّي السَّواد وَشَاطَرنَاهم وَنِلنَا مِنهُم؛ وَاجترَأ مَن قِبَلنَا عَليهِم؛ وَلَهَا إن شَاء اللهُ مَا بَعدَها.

وَقَام عُمَرُ رضي الله عنه فِي النَّاسِ فَقَال: إِنَّ الحِجاز لَيس لَكُم بِدارٍ إلا عَلَى النَّعجَة، ولَا يَقوَى عَلَيهِ أهلُهُ إلا بِذَلِك ؛ أينَ الطُّرَّاء المُهاجرون عَن مَوعد الله! سِيروا فِي الأَرْضِ الَّتِي وَعَدكُم اللهُ فِي الكِتاب أن يُورِثكُمُوهَا؛ فِإنَّه قال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التَّوْبَة: ٣٣]، واللهُ مُظهِرُ دِينِهِ، وَمُعِزُّه ونَاصِرُه، ومُوَلِّي أهلِهِ مُوَارِيث الأُمَم[١].

تجَمَّع مِن مُتَطَوِّعي المَدِينَة حَتَّى بَلَغُوا ألفًا، وَبَلغ مِن صِيْتِ المُثَنَّىٰ وِخِبرَتِه العَسكَرِيَّة مَا يُعَادِلُ كَفَاءَةَ خَالِدِ بْنِ الوَلِيْدِ الحَربِيَّة فَهُو لَم يَنهَزِمْ فِي مَعرَكَةٍ قَطُّ.

ولَمَّا عَلِم المُثَنَّىٰ قِيام الفُرسِ بقِيَادَةِ رُستُم بِتَحريضِ جَيْشٍ قوَامُه ثَلاثِمائَةِ ألفِ مُقَاتِلٍ لِهُجُومٍ عَلَى جَيْشِ المُسلِمِينَ فِي أنحَاءِ جنُوبِ العِراق وَمَصَبِّ الفُرات وامتِدَادٍ إلى احتِلالِ الحِيرَةِ، وقَطعِ خَطِّ الرَّجعَةِ

(١) تَاريخ المُلوك والأمَم ص٢٢٧/ ج٢، محمَّد بن جَرير الطَّبري المُتَوَفَّىٰ ٣١٠هـ.

بِاتِّجاه المَدِينَة وَمَنع وُصَول المَعُونَات عَلَى المُسلِمِين، قَامَ المُثَنَّىٰ بِجَمعِ الجَيش والفَصَائِلِ المُبَعثَرَة فِي المَواقع مِن أنحَاء فِي جُنُوب العِراقِ وَتَمَّ انسِحَابُ جَيْش المُسلِمِينَ دُون قِتَال وَبِذَلِك وَصَل خَبَرٌ إلى رُستُم فَعَلِمَ بِفَشَل خُطَّتِهِ.

وَمَا زَالَت المَعرَكَة لَم تنته مَعَ الفُرسِ فلَمَّا عَلِم المُثَنَّىٰ بِنُزول وَتَمَرْكُز الفُرس فِي مَنطقةِ النَّمارِقِ، مَشَى بِقُوَّاتِهِ إلَيهِم وَنشَبَ بَينَهُم قِتَالٌ شَدِيد وَانهزَمَ الفُرسُ أمَامَ المُسلِمِينَ رَغمَ كَثرَةِ عَدَدِ الفُرس وَوَقَع قَائِدهُم جَابَان فِي الأسرِ كَمَا انتَصَر المُسلِمُونَ فِي مَعْرَكَة السُّقاطية والتَقَوا فِي مَعْرَكَة الجَالينوس فَانتَصَر المُسلِمُونَ أيضًا وتَوَجَّهُوا إلى زَندُورد فَحَاربهم بَعدَما نَقَضوا العَهد وَانتَصر عَلَيهِم.

فَفِي مَعْرَكَة الجِسر وَصَّى أَبُو عُبَيْدٍ الأمرَاء الَّذِين يَتَولَّون القِيَادَة إذا وَقَعَ شَهيدًا، فَعِندَمَا سَمِعَ المُسلِمُونَ استِشهَاد أَبِي عُبَيْدٍ انهارَت عَزيمَتُهُم، وَمَن الَّذِين وَصَّى بِهِم هُو المُثَنَّىٰ بنُ حَارِثَة فاستَلَمَ القِيَادَة وَشَدَّ مِن عَزِيمَة المُسلِمِينَ، وَبَعدَ اشتِدَاد المَعرَكَة أمَرَ المُثَنَّىٰ بِانسِحَاب المُسلِمِينَ بِأقَلّ خَسَارة وَقَام بِإصلَاحِ الجِسر الذي كَانَ قَد خَرَّبَه عَبدُ الله بنُ مَرثَد الثَّقَفِي، ومَعَ استِمرَار القِتَال أفسَح المُثَنَّىٰ الطَّرِيق لِعُبُور المُسلِمِينَ عَبرَ الجِسر، وقَاتَل المُثَنَّىٰ فِي شَجَاعَة وَصَدَّ وَصُولَ الفُرس إليهم، وَحَمَى المُسلِمِينَ لِعُبورِ الشَّاطِئ، وَأثنَاءَ إصلَاح الجِسر سَقَطَ

كَثير مِنَ المُجَاهِدِين وَجُرِحَ المُثَنَّىٰ جُرحًا مُميتًا وانتَقَل إلى رَحْمَة اللهِ بَعدَ أكثَر مِن شَهرَين.

قَالَ الطَّبَرِي: وَخَشَعَ نَاسٌ فَتَوَاثَبُوا فِي الفُرات؛ فَغَرِق مَن لَم يَصبِر وَأسرَعُوا فِيمَن صَبَر، وَحَمَى المُثَنَّىٰ وفُرسَانٌ مِنَ المُسلِمِينَ النَّاس، ونَادَى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّا دونَكم فَاعبرُوا عَلَى هَينَتِكُم وَلا تَدهَشُوا؛ فإِنَّا لَن نُزَايِل حَتَّى نَرَاكُم مِن ذَلك الجَانِبِ، وَلا تُغرِقُوا أنفُسَكُم.

فَوَجَدُوا الجِسر وعَبد الله بن مَرثَد قَائِم عَليه يَمنَعُ النَّاسَ مِنَ العُبُورِ، فَأَخَذُوه فَأَتَوا بِهِ المُثَنَّىٰ، فَضَرَبَهُ وقَالَ: مما حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعت؟ قَال: لِيُقَاتِلوا. وَنَادَى مَن عَبَرَ فَجَاؤوا بِعُلُوج، فَضَمُّوا إلى السَّفِينة (قِطَع خَشَب لِلعُبُور) الَّتِي قُطِعَت سَفَائِنُها، وَعَبَرَ النَّاسُ، وَكَانَ آخِر مَن قُتِل عِندَ الجِسرِ سَلِيط بنُ قَيس، وَعَبَرَ المُثَنَّىٰ وَحَمَى جَانِبَه[١].

وَفِي اليَوم الثَّانِي مِنَ معْرَكَة الجِسر وَصَلت أخبَار إلى القَائِد المُثَنَّىٰ بِأَنَّ قَائِدَي الفُرس جَابان وَمُرَادنشَاه مُتَوَاجِدان فِي مَنطقَة أُلَّيْس (قَرية فِي الأنبَار) فَقَام المُثَنَّىٰ مَعَ جُنُودِه وَهَجَم عَلَيهِم فَأَخَذَهُم الرُّعب وَوَقَعُوا فِي يَد المُثَنَّىٰ وَقَتَلَهُمَا مَعَ حُرَّاسِهما.

وفِي الثَّالِثَ عَشَر مِن رَمَضَان بَدَأت مَعْرَكَة البُوَيْب (البُوَيب مِمَّا يَلِي الكُوفَة) وكَانَت مَعْرَكَة مُهِمَّة ومُبَشِّرَة لِلمُسلِمين فَهِي بِدَايَة ومُقَدَّمَة

(١) تَارِيخ المُلوك والأمَم ص٢٣٢-٢٣٤/ ج٢، محمَّد بنُ جَرير الطَّبَري المتوفى ٣١٠هـ.

لِمَعْرَكَة القَادِسِيَّة، فَفِي هَذِهِ المَعرَكَةِ انتَصَرَ اثنَا عَشَر ألفًا مِنَ الُمجَاهِدِين عَلَى الفُرس المَجُوس، وأَبَادُوا بِحُدُودِ مائَةِ ألفٍ مِن فُرسَان الفُرس المَجُوسِ، بَينَما أبَادُوا فِي القَادِسِيَّة ثَلاثِين ألفًا، وكَانَ الُمسلِمون يَومَئِذ ثَلاثِين ألفًا أيضًا.

فَمَعْرَكَة البُوَيْب مَعْرَكَة مُهِمَّة مَهَّدَت وسَهَّلَت الطَّرِيق لِخَوض مَعْرَكَة القَادِسِيَّة، كَمَا وجَاءَت المَعُونَات الُمنتَظَرَة مِنَ المَدِينَةِ، وَتَم تَنظِيمُ الجَيشِ مِن قِبلِ المُثَنَّىٰ وَقَد بَلغَ عَددُ الجَيش اثني عَشَرَ ألفًا، استِعدَادًا لِمُوَاجَهَةِ الجَيْش الفَارِسِي بِقِيَادَة مَهرَان بن بَاذَان وَقد بَلَغَ مائَة وَخَمسِينَ ألفًا مِن الُمقَاتِلين، أَرسَلَ مَهرَان إلى المُثَنَّىٰ مَبعُوثاً، يَقُول: إمَّا أن تَعبُرُوا إلينَا وَإمَّا أن نَعبُرَ إلَيكُم، فَقَال الُمثَنَّى: اعبُرُوا أنتُم، فَعَبَرَ جَيْش الفُرس، وَكَانَ شَهر رَمَضَان، والُمسلِمُونَ صَيَام، فَأمَرَ المُثَنَّىٰ بالإفطَار لِيَقووا عَلَى الجِهَاد.

وَبَدَأ القِتَال وَأُشعِلَت الحَربُ مِن جِهَة الفُرس وَشَدَّوا عَلَى المُسلِمِينَ، فَهَمَّ المُثَنَّىٰ بِإزَالَةِ الرَأس وَالِمحوَر الُمهِم فِي الجَيش، وَهُو القَائِد الَّذِي يَقُود المَعرَكَة فَاجتَمَعَ مُقَاتِلو الفُرس حَول قَائِدِهم خَوفًا مِن قَتلِهِ، فَحَدَث ارتِبَاك فِي صُفُوف الفُرس فَقَرَّرُوا الانسِحَاب وَالتَّراجُع نَحوَ النَهْر.

لَكِن المُثَنَّىٰ والُمسلِمُونَ لَم يُتِيحوا وَيَترُكوا لهم الفُرصَة لِهُرُوبِهِم، فَعَمَدُوا إلى الجِسر وَقَطَعُوا طَريق رُجُوعِهم وَقَاتَلَهم المُثَنَّىٰ مع جيشهِ

حَتَّى مَاتَ مائَة ألفٍ مِنَ الفُرس، وَاستُشهدَ مَسعُود بنُ حارِثَة ﵁ أخو المُثَنَّىٰ فِي المَعرَكَة.

قَال المُثَنَّىٰ: قَد قَاتَلتُ العَرَبَ والعَجَمَ فِي الجَاهِلِيةِ والإسْلَامِ، واللهِ لَمَائَة مِن العَجَمِ فِي الجَاهلية كَانَوا أَشَدَّ عَليَّ مِن ألفٍ مِن العَرَبِ، وَلَمَائَة اليَوم مِن العَرَبِ أَشَدّ عَلي مِن ألفٍ مِن العَجَمِ، إِنَّ الله أذهَبَ مَصدُوقَهم، وَوَهَّنَ كَيدَهُم فَلا يَرُوِّعَنَّكُم زهَاءٌ تَرونَهُ، وَلَا سَوادٌ (كَثرَة عَدَدِهِم) وَلَاقِسِيٌّ فجٌّ، وَلاَ نِبَال طوَال (يعني أسلِحَتَهُم)، فَإِنَّهُم إذَا أعجَلوا عَنْهَا أو فَقَدُوهَا، كَالبَهَائِم أينَما وَجَّهتُمُوهَا اتَّجَهَت.[1]

رَحِمَ اللهُ المُثَنَّىٰ، كَانَ يَقُول عَن الفُرس أنهُمُ كَالبَهَائِم أينَمَا وَجَّهتُمُوهَا اتَّجَهَت، فَهَدَرَ صَيحَاتِهِم وأفشَلَ خُطَّتَهُم.

وقَال الطَّبَرِي: عَن أبِي رَوق قَال: وَالله إِنَّا كُنَّا لَنَأتِي البُوَيْب فَنَرَى فِيمَا بَين مَوضِع السكون عِظَامًا تلولًا تَلُوح مِن هَامِهِم وَأوصَالِهِم يُعتبَر بِهَا.

وحَدَّثَنِي بَعضُ مَن شَهِدَهَا، أَنَّهُم كَانَوا يَحرِزُونَها مائَةَ ألفٍ، وَمَا عَفَى عَلَيهَا حَتَّى دَفَنَهَا أدفَانَ البُيُوت.

وَقَال: فَمَا كَانَت بَينَ العَرَبِ وَالعَجَمِ وَقعَةٌ كَانَت أبقَى رِمَّةً مِنها[2].

---

(١) تَاريخ الأمَم والمُلُوك، ج٢ ص٣٧٣، لأبِي جَعفَر محمَّد بن جَرير الطَّبَري المتوفى ٣١٠هـ.

(٢) تَاريخ الأمم والمُلُوك، ج٢ ص٣٧٣، لابن جَرير الطَّبَري المتوفى ٣١٠هـ.

استَمَرَّت مُطَارَدَة المُسلِمِينَ وَلَم تنقَطِع حَتَّى يَوم وَلَيلَةٍ، فَقَد أبَادُوا بِحُدُود مائَة ألفٍ مِن الفُرس، وَتَابَع رِجَال المُثَنَّىٰ المُطارَدة حَتَّى بَلَغُوا سَابَاط (قَريَةٌ قَرِيبَة مِن المَدَائِن) وَقتَلوا القَائِد مَهرَان وَصَاحِبَه شَهربراز.

لَقَد كَانَت مَعْرَكَة البُوَيْب مِن أهَم المَعَارِك فِي العِراق، حَيثُ فتَحَت الطريق وَمهَّدَت إلى خَوض مَعْرَكَة القَادِسِيَّة والَّتِي انتَصَرَ فِيهَا المُسلِمُون وسَبَّبَت انهِيَارَ الإمبرَاطُورِيَّة الفَارِسيَّة حَيثُ انتَصَرَ المُسلِمُون فِي مَعرَكَة البُوَيب بِمُشَارَكَة اثنَي عَشَر ألفًا مِن المُسلِمِينَ مقابل مِئَةٍ وخَمسينَ ألفًا مِن الفُرس وبعد الهزيمة أُبِيدَت مِئَةُ ألفٍ مِنهُم، وَكَانَت أهَم وأشد مِن معْرَكَة القَادِسِيَّة الَّتي أُبِيدَ فِيها ثَلاثِون ألفًا بِقِيَادَة رُستُم، وَاستَمَرّتِ المَعْرَكَةُ ثَلاثَةَ أيَّام مُتَوَالِية، وَتَمَكَّن المُسلِمونَ مِن تَطهِير أرضِ العِراق مِن الفُرس المَجُوس إلى الأبَد، ثُم انتَقَلتِ المَعَارِكُ والمُجَابَهَات إلى أرَاضِي بِلاد فَارس.

وَلَم يَقِف المُثَنَّىٰ عَن مُهَاجَمَةِ الفُرس وَضَربِ مَصَالِحِهم، وقَد سَبَقَ أن أغَارَ عَلَى أسَوَاق بَغدَادَ، وبَدَأ يُوَسِّع خُطَّةَ المُوَاجَهَة وَيُحَاوِل الحُصُول عَلَى التَّموِيل لِجَيْشه، وإضْعَافَ صَفِّ الأعدَاء.

قَال الطَّبَرِي: قَال رَجُل مِن أهلِ الحِيرة لِلمُثَنَّى: ألا نَدُلُّك عَلَى قَريَة يَأتِيهَا تجَّار مَدائِن كِسرَى والسَّواد، وَتَجتَمِع بهَا فِي كُل سَنَة مَرة وَمَعَهُم فِيهَا الأموَال كَبَيتِ المَالِ، وَهَذه أيَّام سُوقِهم، فَإن أنتَ قَدَرتَ أن

تُغِيرَ عَلَيهِم وَهُم لَا يَشعُرُون أَصَبتَ فِيهَا مَالًا يَكُونُ غِنَاءً لِلمُسلِمين، وَقَوُوا بِهِ عَلَى عَدُوِّهِم دَهرَهُم، قَال: وَكَم بَينَ مَدَائِن كِسرَى وَبَينَها؟ قَال: بَعض يَوم أو عَامة يَوم، قَال: فَكَيفَ لِي بَها؟

قَالوا: نَأمُرُك إن أَردتهَا أن تَأخُذ طَريق البرِّ حَتَّى تَنتَهي إلى الخَنَافس (قَريَة فِي الأنبَار)، فَإنَّ أهلَ الأنبَار سَيَضرِبون إلَيهَا، وَيخبِرُون عَنك، فَيأمَنُون، ثُم تَعُوج عَلَى أهل الأنبَار فَتَأخُذ الدَهَّاقِين بِالأدلاء فَتَسِير سَواد لَيلِتِك مِن الأنبَار حَتَّى تَأتِيَهُم صُبحًا فَتُصبِّحَهُم غَارةً.

فخَرَجَ مِن أُلَّيْس حَتَّى أتَى الخَنَافس، ثُمَ عَاد حَتَّى رَجعَ عَلَى الأنبَار، فَلَمَّا أَحَسَّه صَاحِبُها تَحَصَّن وَهُو لَا يَدري مَن هُو، وَذَلِك لَيلًا فَلَمَّا عَرَفَه نَزَل إلَيه فَأطْعَمَهُ المُثَنَّىٰ، وَخَوَّفَهُ وَاستَكتَمَهُ، وَقَال: إنِّي أُرِيد أن أُغِيرَ فَابعَث مَعيَ مَن هُوَ أدَل مِنكَ، فَزَوَّدَهُم الأطعِمَة والأعْلَاف وَبَعَثَ مَعَهُم الأدِلَّة، فَسَارُوا حَتَّى إذا كَانَوا بِالنِّصف، قَال لَهُم المُثَنَّىٰ: كَم بَينِي وَبَين هَذه القَرية؟ قَالوا: أربَعة أو خَمسَة فَرَاسِخ. فَقَال لأصحَابِه: مَن يَنتَدِب لِلحَرس؟ فَانتَدَبَ لَهُ قَوم، فقَال لَهم: أذكُوا حَرسَكُم، وَقال: أيُّها النَّاس أقِيمُوا وأطعِمُوا وتَوضَّؤوا وتَهيَّؤوا.

وَبَعَثَ الطَّلائع فَحَبَسُوا النَّاس لِيَسبِقُوا الأخبَارَ، فَلَمَّا فَرغُوا أسرى إلَيهِم آخِر اللَّيل فَعَبَرُوا إلَيهِم، فَصَبَّحَهُم فِي أَسْوَاقِهِم، فَوَضَعَ فِيهِم السَّيف فَقَتَلَ، وأخَذُوا مَا شَاؤوا، وَقَالَ المُثَنَّىٰ: لاَ تَأخُذُوا إلَّا الذَّهَبَ

والفِضَّة، وَلَاتَأْخُذُوا مِن المَتَاع إلاَّ مَا يَقدِرُ الرَّجُل مِنكُم عَلَى حَملِهِ عَلَى دَابَّتِهِ. وَهَرَبَ أهلُ الأسوَاق، وَمَلأ المُسلِمُونَ أيدِيَهُم مِن الصَّفرَاءِ والبَيضَاءِ والحرِّ (الحَسَن والجَيِّد) مِن كُل شَيء، ثُم خَرَجَ كارًّا حَتَّى نَزَل بِنَهْرِ السَّيلحين بِالأنبار، فَنَزَلَ وَخَطَب النَّاس، وَقَال: أَيُّها النَّاس انزِلُوا واقضُوا أوطَارَكُم، وتَأَهَّبُوا لِلسَّير، واحمَدوا الله وسَلُوه العَافِية، ثُم انكَشِفوا قَبيضًا، فَفَعَلوا، فَسَمِع همسًا فِيمَا بينهُم: مَا أسرَعَ القَومُ فِي طَلَبِنَا. فَقال: تَنَاجَوْا بِالبِرِّ والتَّقوى وَلَا تَتَنَاجَوا بِالإثمِ وَالعَدُوان، انظُرُوا فِي الأمُور وَقَدِّرُوهَا ثُم تَكلَّمُوا، إنَّه لَم يَبلُغ النَّذير مَدِينَتَهم بَعدُ، وَلَو بَلَغَهُم لحَال الرُّعب بَينَهُم وَبَين طَلَبِكُم[1].

وأخِيرًا كَانَ جُرحُ المُثَنَّىٰ جُرحًا مُمِيتًا فِي مَعْرَكَة الجِسر، وَمِن جَرَاء الجُرحِ انتَقَلَ إلى رَحْمَةِ اللهِ بَعدَ أكثَر مِن شَهرَين مِن جُرحِهِ، نَسأَلُ اللهَ القَبُول لَنَا وَلَهُ وَلِجَمِيع المسلِمِينَ.

---

(١) تَاريخ الأمَم و المُلُوك ص ٣٧٧ ج٢/ محمَّد بن جَرير الطَّبري المُتوَفَّىٰ ٣١٠هـ.



# القَعقَاع بنُ عَمْرٍو التَّمِيمِي رضي الله عنه

أسْلَمَ فِي العَامِ التَّاسِع لِلهِجرَة عِندَمَا قَدِمَ المَدِينَة، وَكَانَ صَاحِبَ الشَّجَاعَةِ وَصَانِعَ الخَوارِق فِي الحَرب عَلَى الأعدَاء، سَاهَمَ فِي الفتح الإسْلَامِي، وَلمَّا كَانَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيْدِ رضي الله عنه فِي العِرَاقِ طَلَبَ عونًا مِن أَبِي بَكرٍ رضي الله عنه، فَأَرسَلَ لَهُ القَعقَاع بنَ عَمرو رضي الله عنه، وَقِيل لأبِي بَكرٍ: أتُمِدُّ رَجُلًا قَد ارفَضَّ عَنْهُ جُنُودُهُ بِرَجلٍ؟ فَقَال: لَا يُهْزَمُ جَيْشٌ فِيه مِثلُ هَذا[1].

وَيقَولُ عَنْهُ أَبُو بَكرٍ رضي الله عنه: لَصَوتُ القَعقَاع فِي الجَيش خَيرٌ مِن ألفِ رَجُلٍ.[2]

غَنِمَ القَعقَاع فِي فَتحِ المَدَائِنِ أدْرُعَ كِسرَى وسَيفَهُ، وَكَانَ يَتَقَلَّدُهُ فِي أوقَاتِ الزِّينَة، وَكَانَت كَتِيبَتُهُ الَّتِي يَقُودُهَا تُسَمَّى الخَرسَاء، أَرسَلَهُ سَيِّدُنَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه إلى سَعدٍ عِندَمَا طَلَبَ المَدَدَ مَنهُ، وَقَال: لَا يُهزَمُ جَيْشٌ فِيه مِثلُ هَذَا. وَكَتَبَ سَعدٌ رضي الله عنه عَنِ القَعقَاع رضي الله عنه لِعُمَرَ بنِ

---

(١) الإصَابَة فِي تَمييز الصَّحَابَة ج٥/ ص٣٤٤، للإمَام الحَافظ أحمد بن علي بنِ حَجَر العَسقَلانِي المُتَوَفَّى ٨٥٢ هـ.

(٢) أسدُ الغَابَة فِي مَعرِفَة الصَّحَابَة ج٤ ص٣٩٠، للإمَام عِز الدِّين ابن الأثِير أبِي الحَسن علي بن مُحَمَّد الجَزرِي المُتوَفَّى ٦٣٠ هـ.

الخَطَّابِ رضي الله عنه فقَال: لَمْ أَرَ مِثلَ القَعقَاع، حَمَلَ يومًا ثَلاثِينَ غَارةً، يَقتُلُ فِي كُلِّ غَارَةٍ فَارِسًا مِن فُرسَانِ الفُرسِ المَشهُورِين.

خَرَجَ قَائِدُ الفُرس هُرمُز فِي مَعْرَكَة كَاظِمَة (تَقَع فِي الكُوَيت) لِلقَاءِ خَالِدِ بْنِ الوَلِيْدِ رضي الله عنه، وَحَاوَل هُرمُز وَجُندُهُ قَتلَ خَالِدٍ، لَكِن القَعقاع هَاجَم وَأَنقَذَ خَالِدًا مِنَ المَوت، ثم أَرسَلَهُ خَالِدٌ بَعدَ استِلام الحِيرَة إلى السَّواد، جُنُوب العِرَاق، فَنَجَحَ القَعقَاعُ فِي التَّغَلُّب عَلَى الأعدَاءِ، وَقَادَ انتِصَارًا فِي مَعْرَكَة الحَصِيد أيضًا.

كَانَ ذِكرُهُ مِثل خَالِدٍ لَهُ هَيبَةٌ وَمَكَانَةٌ يُرعِبُ الأعدَاءَ، فقد قَتَلَ فِي مُواجَهَة العَدُو قَائِد الفُرس زَرمهر وَروزبه كَما قَتل مِن العَرَبِ المُوالِينَ لِلفُرس، فكَانَ القَعقَاع مِن أفرَسِ النَّاس.

شَارَكَ القَعقَاع فِي معْرَكَةِ القَادِسِيَّةِ لَكِن وَصَلَ في اليوم الثَّاني مِن الصَّباح وَهُو يَومُ أغوَاث، جَاءَ مِنَ الشَّام فِي مُقَدِّمَة قُواتِ هَاشم لِنَجدَة سَعْد، وَكَانَ عَدَدُهُم ألفًا مِن الرِّجَال، فقَام بإعدَادِهم عَلَى شَكل جَمَاعَات مُتَفَرِّقَةٍ وَمُؤلَّفَةٍ مِن عَشَرَةِ أشخَاص، فَفَرِح المَرَابِطُون بِقُدومِهِ، فَتَقَدَّمَ القَعقَاع بِهُجُوم عَلَى الأعدَاء قَائِلًا: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي جِئتُكُم فِي قَومٍ وَاللهِ لَو كَانُوا بِمَكَانِكم ثُمَّ أحَسُّوكُم حَسَدُوكُم حظوَتهَا، وَحَاوَلُوا أن يَطيرُوا بِهَا دُونَكُم، فَاصنَعُوا كَمَا أصنَع[١].

(١) تَاريخ الأمَم والمُلُوك ج٣/ ص٥٢، تَأليف أَبُو جعفر محمَّد بن جرير الطَّبري.

نَادَى القَعقَاع فِي المعركة: مَن يُبَارِزُ؟ رَغمَ أَنَّه وَصَلَ مِن الشَّام في صبيحَةِ اليَومِ الثَّاني مِن مَعْرَكَةِ القَادِسِيَّة، فَخَرَجَ بهمن جَاذَوَيه قَائِد المَجُوس يُبَارِزُهُ، فَصَاح القَعقَاع يا لَثَارَات أَبِي عُبَيْدٍ وَسَليط وأَصحَابِ الجِسر، وَبَارَزَهُ القَعقَاع وَقَتَل بهمن جَاذَوَيه الَّذِي قَادَ سَابقًا مَعْرَكَة جِسر المَروحة، فقد وقع فيها نحو من ٤٠٠٠ مسلم بين قتيل وغريق.

ثُمَّ نَادَى القَعقَاع مِن جَديد: مَن يُبَارِز؟ فَخَرَجَ إِلَيهِ قَائِدُ مُؤَخَّرَةِ الجَيش بِيرزَان، وَبَعدَ مُبارَزة بِالسُّيُوفِ قَتَلَ القَعقَاع بِيرزان بِضَربة قَوية عَلَى عُنُقِه.

ثُم بَدَأ هُجُومٌ مِن قِبَلِ الفُرسَان المُسلِمِينَ واستَمَرَّ القِتَال حَتَّى اللَّيل، وَكَانَ الفُرس يَستَخدِمُون الفِيَلَة المدربة فِي القتالِ، فَيَنزِلُ الرُّعبُ فِي خُيُولِ المُسلِمِينَ، وَتكبِّدهم خَسَائِرَ، فَأَمَرَ القَعقَاع بإلبَاسِ الإِبلِ مَلابِسَ مُبَرْقَعَةً وَمُجَلَّلَةً، وَذَلِك لإربَاك خَيلِ الفُرس وَنَجَحَت الفِكرَة فَجَفَلَت الخُيول تَفِرُّ مِن الإِبلِ المُبَرْقَعَة، وبذلك ارتَفَعَت عزيمَةُ المُجَاهِدِين المُسلِمِينَ، وَقَتَل القَعقَاع فِي يومٍ وَاحِد ثَلاثِينَ مُقَاتِلًا مِن الفُرسِ، وَكَانَ يَقُول فَي النَّاس: إنَّ الدَّائِرة (الهَزِيمَة) بَعدَ سَاعَة لِمَن بَدأ القَوم، فاصبِرُوا سَاعةً واحمِلُوا، فإِنَّ النَّصرَ مَعَ الصَبرِ[1].

(١) الكَامِل فِي التَّارِيخ ج٢/ ص١٨٦ الإِمَام العَلاَّمَة عُمدَةُ المُؤَرِّخِين أَبو الحَسن علي بن أَبِي الكَرم مُحَمَّد بنِ مُحَمَّد بنِ عبد الكَرِيم بنِ عبد الكريم بنِ عبد الواحد الشَّيبَاني المُعروف بابنِ الأثير الجَزرِي المُلَقَّب بِعِز الدِّين المُتوَفَّى ٦٣٠ هـ.

فَمَا كَانَ مِن الفُرسِ إلَّا الهَزِيمَة وَتَكَبُّدَ خَسَائِرَ فَادِحَة فِي صُفُوفِهِم، وَطَارَدَهُم القَعقَاع حَتَّى أوقَعَ بِهِم خَسَائِر، وانتَصَر المُسلِمُونَ فِي القَادِسِيَّة.

كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ إلى سَعْد: أيُّ فَارِس كَانَ أفَرس فِي القَادِسِيَّة؟ فَكَتَبَ إليه سَعْد: إنِّي لَم أرَ مِثلَ القَعقَاع بن عَمْرو حَمَلَ فِي يَوم ثَلاثِين حَملَةً يَقتُل فِي كُلِّ حَملَة بَطَلًا[١].

عِندَما قَرَّرَ سَعْد فتحَ المَدَائِنِ كَانَت كَتِيبَةُ القَعقَاع ضمنَ الكَتَائِبِ المُشَارِكَة، والَّتِي كَانَت تُسَمَّى بِالكَتِيبَة الخَرسَاء فَأبلَت بَلاءً حَسَنًا حَتَّى انتَصَر المُسلِمونَ عَلَى الفُرس، وكَانَ مِنْ قَتلَى القَعقَاع مَجُوسِي كَانَ يَحمِي انسِحَابَ الفُرسِ فقَتَلَهُ، فإذَا مَعَ المَقتُول أحَدَ عَشَر سَيفًا ودُرُوعًا، بينَهَا سَيفُ ودِرعُ كِسرَى وهُرمُز وهِرَقل وخَاقَان والنُّعمَان وغَيرِهم مِن المُلُوكِ والأُمَرَاء والقَادَة، فَغَنِمَهَا القَعقَاع[٢].

حَاصَرَت قُوَّاتُ القَعقَاع القُوَّات الفَارِسِيَّة فِي جَلَولَاء وطَالَ الحِصارُ ثَمانِين يَومًا، حَتَّى زَحفَ القَعقَاع وَوَصَلَ إلى بَابِ خَندَقِ

---

(١) تَاريخ الأمَم والمُلُوك ج٣/ ص١٢٨، تأليف أَبي جَعفَر محمَّد بن جرير الطَّبري. الإصَابة فِي تَمييز الصَّحَابَة ٥ج/ ص١٢٢ للإمَام الحَافظ أحمد بن علي بنِ حَجَر العَسقَلانِي المُتَوَفَّى ٨٥٢ هـ.

(٢) تَاريخ الأمَم والمُلُوك ج٣/ ص١٢٢، تأليف أَبي جعفر محمَّد بنُ جرير الطَّبري. والكَامل فِي التَّاريخ ج٢ ص٢٠١.

الفُرس، فَدَخَل الخَندَقَ وتمَكَّنَ وسَيطَرَ عَلَى قِسمٍ مِنهُ، وأمَرَ المُسلِمِينَ بِالدُّخُول، وعِندَمَا دَخَل المُسلِمُونَ انهَزَمَ الفُرس[١].

طَارَدَ القَعقَاع الفُرسَ حَتَّى وَصَلَ إلى خَانِقِين ثَم حُلوَان وقَصرَ شِيرِين، وقَتَل قَائِدَ الفُرسِ بِمَهرَان فِي خانِقِين.

لَم تَنتَهِ فُتُوحَات القَعقَاع بِل استَمَرَّت حَتَّى وَصَلَت إلى نَهَاوَنْد، وقَتَل قَائِد الفُرس الفِيروَان، فِي مَعْرَكَة نَهَاوَنْد تَحْتَ قِيَادَة النُّعمَان بنِ مُقَرِّن المُزني، وكَانَ فِي مُقَدِّمَة الجَيش والعَدُو مُحَصَّن دَاخل المَدِينَة، فَقَامَ بِتَرتِيب خُطَّة عَسْكَرِيةٍ يُمَوِّهُ العَدُو، وذَلِكَ لِسَحبِ العَدُو خَارِج الأسوَار، ثُم مُهَاجَمَة الفُرس خَارِج المَدِينَة الحَصِينَة، فِي مَكَانِ العَرَاء لِسُهُولَة القِتَال فِيه، فَهَجَمَ بِالخَيلِ ثُمَّ انسَحَب وأظَهَر الفِرَارَ، ثم طَارَد القَعقَاع قَائِدَ الفُرسِ الفِيروَان حَتَّى أدرَكَهُ وقَتَلَه وانتَهَت المَعرَكَة بِالفَتحِ، وسُمِّيَ هَذَا الفَتحُ بِفَتحِ الفُتُوح[٢].

سَكَنَ القَعقَاعُ رضي الله عنه الكُوفَة وفِيها تُوفِّيَ، وبلغ عَدَدُ المَعَارِكِ الكَبِيرَةِ الَّتي خَاضَها سَبعَة مَعَارِكَ فِي العِرَاقِ ووَاحِدة فِي إيرَان. وثَلاثَة مَعَارِك فِي الشَّام، فَقَد أبْلَى بَلَاءً حَسَنًا فِي المَعَارِكِ الحَاسِمَةِ فِي القَادِسِيَّة ونَهَاوَنْد واليَرمُوك، رَحِمَهُ اللهُ وأدخَلَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِه.

---

(١) فُتُوح البُلدَان لأحمد بن يحيى بن جابر بنِ دَاوُد البَلاذَرِي ص ٣٠٢.
(٢) الكَامل فِي التَّاريخ لابن الجزري ج٢/ ص٤١٩.



## عِيَاضُ بن غُنْمٍ الفِهْرِيُّ القُرَشِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

أسلَم قَبلَ صُلحِ الحُدَيبية، وَشَهِدَ الحُدَيبية مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَنَالَ شَرَفَ الصُّحبَةِ، وفَتَحَ الدِّيَارَ وَالمُدُنَ وَالقُرَى وَالقِلاعَ وَالحُصُونَ الكَثِيرَة بَينَ نَهرَي دِجلَة وَالفُرَات ضِدَّ الفُرس المَجُوس وَأرمِينِيَة وَبِلاد الرُّومِ وَالشَّام.

كَتَبَ أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى خَالِد بْنِ الوَلِيْدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعدَ مَعْرَكَة اليَمامَة إنَّ الله فَتَحَ عَلَيكَ فَعَارِق -عِرَاق- حَتَّى تلقَى عِيَاضًا.

وَكَتَبَ إلى عِيَاض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُو بَينَ النِّبَاج - مَنزِل لحَجَّاج البَصرَة بَينَ مَكَة وَالبَصرَة وَالحِجَاز-: سِر حَتَّى تَأتِي المُصَيَّخ - مَدِينَة بَينَ حورَان وَالقَلت - فَابدَأ بِهَا، ثُم ادخُل العِرَاقَ مِن أعلاَهَا، وَعَارِق حَتَّى تَلقَى خَالِدًا(١).

كَانَ عِيَاض فِي مُقَدِّمةِ الجَيش عِندَمَا تَقَدَّم المُسلِمونَ لِفَتح المَدَائِنِ (عَاصِمةُ كِسرَى مَلِكَ الفُرس حِينَئذ وَالآن تُسَمَّى سَلمَان بَاك وَفِيها ضَريح سَلمَان الفَارِسِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، وَ شَهِدَ مَعْرَكَة جَلَولاء.

خَرَجَ عِيَاض وَأُمَرَاء الجَزِيرَةِ وَتَوَجَّه كُلُّ أمِير إلى المَنطقَة التِّي أُمِّرَ

---

(١) تَاريخ الأمم والمُلُوك ج٢ ص٥٥٣، تَأليف ابن جرير الطَّبري.

عَلَيهَا، وَبَعدَ أنَّ ضَمَّ إِلَيهِ سُهَيلًا وَعَبدَ الله تَوَجَّه نَحوَ حِرَان، فَاستَسلَمَ أهلُهَا وَقَبِلُوا الجِزيِةَ وَبَعدَهَا استَسلَم أهلُ الرُّهَا وَأجَابُوا إلى الجِزيَه، فَكَانَت الجَزِيرَة بَينَ دِجلَة وَالفُرَات مِن أسهَل البُلدَان فَتحًا، فَلَم يَبقَ بِهَا مَوضِع قَدَمٍ إلا فُتِحَ، وَكَانَ كُلُّ هَذَا فِي عَهدِ عُمَر بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وَأُمِّرَ حَبِيبُ بنُ مَسْلَمة عَلَى عَجَم الجَزِيرَة وَالوَلِيدُ بنُ عُقبَة عَلَى عَرَبِ الجَزِيرَة، ثُمَّ استَمَرَّ عِيَاضٌ عَلَى الفُتُوحَات وَدَخَل الدَّرب وَبَلَغَ خلاط، وَانتَهى إلى العَين الحَامضة مِن أرمِينِية، وَكَانَ دَائِمًا فِي سَاحَات القِتَال بَعدَ مَوتِ أَبِي عُبَيْدَة، مَما يُؤَيِّد أنَّه كَانَ غَازِيًا وَلَيسَ وَالِيًا فِي ذلِكَ الحِين.

وَسَأل عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: مَن استَخلَف أَبُو عُبَيْدَة؟ فَقَالوا: عِيَاض بن غنْم، فَأَقَرَّهُ قَائِلًا: لا أُبَدِّل أمِيرًا أمَّرَهُ أَبُو عُبَيْدَة.

وَكَتَب إلَيهِ: أنِّي قَد وَلَّيتُك مَا كَانَ أَبُو عُبَيْدَة يَلِيه (وَلَّاه ولايَة)، فَاعمَل بالَّذِي يحِقُّ اللهُ عَلَيكَ، وَأعطاه حِين وَلّاه حِمصَ كُلَّ يَومٍ دِينارًا وَشَاةً وَمدًّا، وَعُمُرُهُ سِتّونَ سَنَة هِجرِية ولَم يَترُك مَالًا وَلَم يَكُن عَليه دَينٌ، إذ أنفَقَ أموَالَهُ فِي سَبِيلِ الله، فَقَد كَانَ كَرِيمًا يُحِبُّ الإنفَاق، وَيُطعِم رِفَاقَه وَإذا كَانَ فِي السَّفر وَنَفَدَ زَاده نَحرَ جَمَلَهُ وَكَانَ سَمحًا يُعطِي مَا عِندَه، فَأخبروا عُمَر بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ بِأنَّه يُبذِّر المَال فَقَال: إن سَمَاحَه فِي ذَاتِ يَدِه، فَإذا بَلَغ مَالَ اللهِ عَزَّ وَجَل لَم يُعطِ مِنهُ شَيئًا، وَلَا أعزِل مِن وَلَّاه أَبُو عُبَيْدَة[1].

(١) (صفةُ الصَّفوَة ١/ ٢٧٧) أَبُو الفَرج عبد الرَّحمن بن علي الجَوزِي القُرشي البَغدَادي.

كَانَ رَحِمَهُ اللهُ سَمحًا جوادًا كَريمًا يَعطِي مَا يَملِك، حَريصًا عَلَى الأموَال العَامة حَافِظًا لِحُقُوقِ الرَّعِية زَاهِدًا صَالحًا ورِعًا، لا يَخَافُ لَومَةَ لائِم، وَلا يُفَضِّلُ أهلَ بَيتِهِ وخَوَاصَّه عَلَى مَصلَحَة العَامَّة، فَكُل أذَان يُرفَع فَوقَ الجَزيرَة بَينَ دِجلَةَ والفُرَاتِ يُذَكِّرُنَا بِالفَاتِحِين لِهَذَا البَلد.

قال أَبُو بَكْر بنُ عبد الله بن أَبِي سَبرَة عن مُوسَى بن عُقبة قَال: لمَّا وَلِيَ عِيَاضُ بنُ غنْم قَدِمَ عَلَيه نَفرٌ مِن أهلِ بيتِهِ يَطلُبُونَ صِلَتَهُ ومَعرُوفَه، فَلَقِيَهُم بِالبِشرِ فَأنزَلَهُم وأكرَمَهُم، فأقَامُوا أيَّامًا، ثُمَّ سَألُوهُ فِي الصّلَة وأخبَرُوهُ بِمَا تَكَلَّفُوا مِن السَّفرِ إلَيهِ، رَجَاء مَعرُوفِهِ، فأعطَى كُلَّ رَجُلٍ مِنهُم عَشرَةَ دَنَانِير، وكَانُوا خَمسَة، فَرَدُّوهَا واستَخطُوا ونَالُوا مِنهُ.

فَقَال: أي بَنِي عَمّ، واللهِ مَا أنكِرُ قَرَابَتكُم ولاَ حَقَّكُم، ولا بُعدَ شُقَّتكُم، ولَكِن واللهِ مَا خَلصتُ إلى مَا وَصَلْتكُم بِهِ إلّا بِبَيعِ خَادِمِي، وبَيعِ مَا لا غِنَى لِي عَنهُ، فَاعذُرُونِي، قَالُوا: والله مَا أعذرك الله، إنَّكَ وَالِي نِصف الشَّام، وتُعطِي الرَّجل مِنَّا مَا جَهدَهُ أن يَبلُغَه إلى أهلِهِ، فَقَال: فَتَأمُرُونِي أن أسرِقَ مَالَ الله، فَوَاللهِ لَأَن أشُقَّ بِالمِنشَارِ أو أُبرَى كَمَا يُبرَى السَّفَن (الفأس) أحَب إليَّ مِن أن أخَون فِلسًا، أو أتَعَدَّى وأحمِلَ عَلَى مُسلِم ظُلمًا، أو عَلَى مُعَاهِدٍ، قَالوا: قَد عَذَرنَاكَ فِي ذَاتِ يدكَ ومَقدِرَتك، فَوَلِّنَا أعمَالًا مِن أعمَالِك نُؤدِّي مَا يُؤدِّي النَّاسُ إلَيك، ونُصِيبُ مَا يُصِيبُونَ مِنَ المَنفَعَة، فَأنتَ تَعرِفُ حَالنَا وأنّا لَيسَ نَعْدُو مَا جَعلتَ لَنَا، قَال: وَاللهِ إنِّي لأعرِفُكُم بِالفَضلِ والخَيرِ، ولَكِن يَبلُغ عُمر بنَ الخَطَّاب

أَنِّي قَد وَلَّيتُ نَفَرًا مِن قَومِي، فَيَلُومَنِي فِي ذَلك، ولَستُ أحمِل أن يَلُومَنِي في قَلِيلٍ ولا كَثِيرٍ، قَالوا: قَد وَلَّاكَ أَبُو عُبَيدَة بنُ الجَرَّاح وأنتَ مِنهُ في القَرَابَة بِحَيث أنت، فَأنفَذَ ذَلِك عُمر، ولَو وَلَّيتَنَا فَبَلَغَ عُمر أنفَذَهُ، فقال عِيَاض: إنِّي لَستُ عِندَ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب كَأَبِي عُبيدة بن الجَرَّاح وإنَّمَا أنفَذَ عُمر عَهدِي عَلَى عَمَل لِقَولِ أبي عُبيدة فِيَّ، وقَد كُنتُ مَستُورًا عِندَ أَبِي عُبَيدَة، فقَال فِيّ، وأعلَم مِني مَا أعلَمُ مِن نَفسِي مَا ذَكَر ذَلِكَ عِنِّي، فَانصَرَفَ القَومُ لَائِمِينَ لِعِيَاضِ بنِ غنْم، ومَاتَ عِيَاض يَومَ مَاتَ، ومَا لَهُ مَالٌ، ولَا عَلَيه دَين لِأَحدٍ[١].

أبلَى عِيَاض بَلاًء حَسنًا فِي فَتحِ العِرَاق وشَهِدَ مَعرَكَة القَادِسِيَةِ تَحتَ لِوَاءِ سَعَدِ بن أَبِي وَقَّاص رضي الله عنه وشَهِدَ فَتحَ المَدَائِن ومَعرَكَة جَلَولَاء في العراق.

بَقِيَ بِمَنصَبِه هَذا وَكَانَ حَرِيصًا عَلَى الأمَوال العَامة وَأمَلاك الأمَّة، أكثَرَ مِن حِرصِهِ عَلَى مَالِه الخَاص، وَلاَ زَالَت ثَمَرَةُ فُتُوحَاتِه تُرَفرِفُ فِي أنحَاء العِراق، حَتَّى تَوفَّاه الله بِالشَّام سَنَة ٢٠ هجرية وَدُفِنَ فِي حِمص، وهو ابنُ ٦٠ سنة، وفي هذه السَّنةِ ماتَ بلال مؤذنُ سيدنا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بدمشق.

تمكن المسلمون من فتح كركوك وضواحيها بقيادة عياض بن غنم وكانت المنطقة تسمى حينئذ بشهرزور.

---

(١) تاريخ مَدِينَة دِمَشق وَذِكر فَضلِها وَتَسمِية مَن حَلها مِن الأمَاثل أو اجتَاز بِنَواحِيها مِن وَارِدِيهَا وَأهلِهَا، ج٤٧ ص٢٨٢، للحَافظ أَبِي القَاسم علي بن الحَسَن بن هِبة الله بن عَبد الله الشَّافِعِي المَعرُوف بِابنِ عَسَاكِرِ المُتَوفَّى ٥٧١ هـ.

# المُغِيرَةُ بنُ شُعبَةَ الثَّقَفِيُّ

هُوَ المُغِيرَةُ بنُ شُعبَة بنِ أَبِي عَامِر بنِ مَسعُود بنِ مُعَتَّبٍ الثَّقَفِي، ويُكنَّى بأَبِي عَبدِ الله، كَانَ ضَخمَ القَامَةِ عَبلَ الذِّراعِين بَعِيدَ مَا بَينَ المَنكِبَين، أَسَلَمَ قَبلَ عُمرَةِ الحُدَيبِيةِ وَشَهِدَ بَيعَةَ الرّضوَانِ، كَانَ يَسكُنُ فِي الجَاهِلِيَّةِ مَدِينَةَ الطَّائِفِ وهُوَ مِن أَشرَافِ ثَقِيفٍ، ومِن أَبرَزِ مُمَيِّزَاتِهِ أَنَّهُ كَانَ أَدِيبًا ودَاهِيًا ولَبِيبًا، ويُقَالُ لَهُ الرَّأي المُغِيرَة، وهُو يُحِبُّ الشِّعرَ ويُحسِنُ القِرَاءَةَ والكِتَابَةَ، ويُحسِنُ الكَلَامَ بِالفَارِسِيَّةِ، وقَامَ مَقَامَ تَرجُمَان بَينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ والهُرمزَان، وشَارَكَ فِي فَتحِ العِرَاقِ والشَّام، وَوَلَّاهُ عُمَرُ بنُ الخطاب ﷺ البَصرَة فَفَتَحَ مَيسَانَ وهَمَذَانَ وعِدَّةَ مُدُنٍ وهُوَ رَسُولُ سَعدٍ إلى رُستُم.

قَال الطَّبَرِيُّ: كَانَ لَا يَقَعُ فِي أمر إلَّا وَجَدَ مَخرَجًا ولَا يَلتَبِسُ عَلَيهِ أَمرَان إلَّا ظَهَرَ الرَّأيُ فِي أَحَدِهِمَا، وقَالَ قَبِيصَة بنُ جَابِر: صَحِبتُ المُغِيرَةَ فَلَو أَنَّ مَدِينَةً لَهَا ثَمَانِيَة أبوَابٍ لَا يُخرَجُ مِن بَابٍ مِنهَا إلَّا بِمَكرٍ لَخَرَجَ المُغِيرَةُ مِن أبوَابِهَا كُلِّهَا.

كَتَبَ سَعدُ بنُ أَبِي وقَّاص إلى عُمَرَ بنِ الخَطَّاب ﷺ قُبَيلَ مَعرَكَة القَادِسِيَّة يَطلُب العَون فَبَعَثَ إلَيهِ المُغيرَة مَع أَربَعِ مِئَةِ رِجُلٍ مِنَ المَدِينَة

فَلَمَّا وَصَلَ إلى سَعدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ أرسَلَهُ إلى الأُبُلَّةِ (مَرفأ لِلسُّفُن القَادِمَة مِن الصِّين جُنُوبَ البَصرَةِ القَدِيمَةِ بِمَسَافَةِ خَمسَةَ عَشَرَ مِيلًا) مع خَمسِمَائَةٍ مِنَ المُجَاهِدِين لِيَكُونَ قُوَّةً سَاتِرَةً تَحمِي تَحَشُّدَ المُسلِمِين مِن خَطَرِ الفُرس الَّذِي يُهَدِّدُ المَنطقَة، وقَبلَ مَعركَة القَادِسِيَّة ضَمَّهُ إلى قُوَّاتِه لِدَعمِ الجيش.

سَافَرَ إلى مِصرَ قَبلَ إِسْلَامِهِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِن بَنِي مَالِك مِن ثَقِيف، فَلَمَّا وَصَل الإسكَندَرِيَّة رَآه المُقَوقَس، فَأَمَر رَجُلًا مِن رِجَالِهِ أَن يَسأَلَ عَنْهُم، فَلَمَّا عَرَفَهُ وأَصحَابَهُ أَنزَلَهُم فِي كَنِيسَةٍ وأَحسنَ ضِيَافَتهم، ثُمَّ أَمَرَ بِهِم فَدَخَلُوا عَلَيه وقَدَّمُوا لَه بَعضَ الهَدَايَا، فَسُرَّ بِهَا المُقَوقَس واستَلَمَهَا، ثُم أَهدَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنهُم هَدَايَا وجَوَائِز.

وعِندَمَا رَجَعُوا فِي طَرِيقِهم إلى الحِجَاز، شَرِبُوا الخَمرَ، فَقَتَلَ المُغِيرَة أَصحَابَهُ وأَخَذَ جَمِيعَ مَا كَانَ مَعَهُم مِنَ المَالِ والهَدَايَا .

لَكِن بَعدَ وُصُولهِ إلى المَدِينَةِ أَسلَمَ، وأَرَادَ إِعطَاءَ الخُمسِ لِلنَّبِي ﷺ فَقَبِل النَّبِي ﷺ إِسْلَامَهُ وكَانَ عَامَ الخَندَق، ورَفَضَ خُمُسَهُ لِأَنَّهُ غَدَرَ بِأَصحَابِهِ، لَكِن عُرْوَة بنَ مَسعُود عَمَّ المُغِيرَة ودَى دِيةً عَنَ المَقتُولِين ثَلاثَة عَشَر نفسًا وأَصلَحَ بينَهُم.

شَهِد المُغِيرَةُ بَعدَ الحُدَيبِيةِ كَافَّةَ غَزَوَات رَسُولِ الله ﷺ وقَاتَلَ قَومَهُ ثَقِيف المُشرِكِينَ فِي الطَّائِف وهَذَا مِن تَمَام إِسْلَامِه، وقَاتَلَ فِي حُروبِ الرِّدَّةِ تَحْتَ قِيَادَة خَالِدِ بْنِ الوَلِيْدِ رضي الله عنه، وشَهِدَ مَعْرَكَةَ اليَمَامَة لِقِتَالِ مُسَيلِمَة الكَذَّابِ وجُندِهِ.

توَجَّهَ المُغِيرَةُ إلى فَتحِ العِرَاقِ تَحْتَ لِواءِ خَالِدِ بْنِ الوَلِيْدِ، ثُمَّ شَارَكَ فِي مَعْرَكَةِ اليَرمُوكِ وعَادَ إلى المَدِينَةِ، وقَبلَ مَعْرَكَةِ القَادِسِيَّةِ كَتَبَ سَعد ابنُ أَبِي وقَّاص رضي الله عنه إلى عُمرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه يَطلِبُ العَونَ لِلمَعْرَكَةِ، فَأَمَدَّهُ بِالمُغِيرَة مَعَ أَربَعمِائَة مُجَاهِدٍ مِنَ المَدِينَةِ، فَلَمَّا وَصَلَ إلى العِرَاقِ أَرسَلَهُ سَعَدٌ عَلَى رَأسِ خَمسِمِائَة مُجَاهِدٍ إلى الأُبُلَّة.

التَحق قوات المغيرة الى قوات سَعد بن أبي وقاص قُبيل مَعرَكة القَادِسية استِعدادًا للمعركة، فأرسَلهُ سعد قبل المعركة مع نَفَر من ذَوي الرأي والخِبرة الى كِسرى للمُفاوضة، وعندَما رَجَع الوفد المُفَاوض، أرسله سعد مرة أخرى لِوحدِه الى رُستم، فحَقَّق انتصارًا مَعنَوِيًّا لِلمُسلِمِينِ عَلى الفُرسِ قَبلَ نُشُوبِ الحَربِ، وزَعزَعَتْ مَعنَوِيَاتِ وَهِمَّةَ خُصُومِهم، فَأثرت الرَّأيَ الصَّائِبَ عَبرَ المُفَاوَضَات عَلَى المُجَابَهَةِ فِي سَاحَةِ القِتَال.

وعِندَمَا فَشِلَتِ المُفَاوَضَات شَجَّعَ وحَرَّضَ النَّاسَ عَلَى القِتَالِ وخَوضِ المَعَارِكِ ضِدَّ الفُرسِ المَجُوسِ ودَفَعُوا تَضحِيَة كَبِيرَة فِي المَعْرَكَة حَتَّى انتَصَرَ المُسلِمُونَ.

انتَقَلَ المُغِيرَةُ إلى جُنُوبِ العِراقِ لِتَطهِيرِ البَصرَة مِنَ الفُرسِ فَقَاتَلَ تَحْتَ قِيَادَةِ عُتبَةَ بنِ غَزوَانَ المَازِنِيِّ، فَشَهِدَ فَتحَ الأُبُلَّة ومَيسَان (بَينَ وَاسِطَ والبَصرَةِ) ودَسْتُ مَيسَان (بَينَ وَاسِطَ والبَصرَةِ والأَهوَازِ) ومِا جَاوَرَهُ أَبَزْقبَاذ (مَوضِع مُجَاور مَيسَان).

استَخلَفَ عُتبَة المُغِيرَةَ عَلَى الصَّلاة فِي البَصرَة إلى أَن يَصِل مُجَاشِعُ بنُ مَسعُود مِن الغَزوَةِ، فَقَامَ بِتَوسِيع البَصرَةِ وتَنظِيمِ أُمُورِهَا، قَالَ البَغَوي: كَانَ أَوَّل مَن وَضَعَ دِيوَانَ البَصرَة.

عِندَمَا أَحَسَّ مُجَاشِعٌ خَطَرَ المَعْرَكَةِ بِسَبَبِ حَشدٍ مِن قِبَل أَحد قَادَة الفُرس، خَرَجَ المُغِيرَة مِن البَصرَة مُستَنجِدًا عَلَى رَأسِ الجَيش مِن المُسلِمِينَ فَتَصَدَّى لِلفُرسِ واشتَدَّ القِتَالُ وكَانَت القُوَّاتُ الفَارِسِيَّةُ أَكثَرَ عَدَدًا مِن المُسلِمِينَ، لَكِنَّ اللهَ أَمَدَّهُم بِالصَّبرِ والإِيمَانِ وانتَصَرُوا عَلَيهِم، ولَمَّا تُوُفِّيَ عُتبَةُ تَوَلَّى المُغِيرَةُ الأَمرَ خَلَفًا لَهُ.

كَمَا وَشَارَكَ المُغِيرَةُ فِي فَتحِ الأهوَاز ونَهَاوَنْدَ وتَوَلَّى وِلَايَة الكُوفَة، وأبلَى رَحِمَهُ اللهُ بِلاءً حَسَنًا فِي المَعَارِكِ حَتَّى أُصِيبت عِينُهُ وَذَهَبَت، وقِيلَ عَنهُ: لَقَدْ كَانَ مِن رِجَالِ الدَّهرِ حَزمًا وعَزمًا ورَأيًا ودَهاءً(١).

انتَقَلَ إلى رَحْمَةِ اللهِ فِي سَنَةِ خَمسِينَ لِلهِجرَةِ مِن مَرَضِ الطَّاعُونِ، ودُفِنَ فِي الثَّوِية (مَنطِقَة قُرب الكُوفَةِ)، وهُو ابنُ سَبعِينَ عَامًا(٢).

---

(١) شَذَرَاتُ الذَّهَبِ فِي أخبَارِ مِن ذَهَب (١/ ٥٦) عَبدُ الحَي بنُ أَحمد بن محمد بنِ العِمَاد الحَنبَلِيُّ.

(٢) المصادر: طبقات ابن سَعْد، أسد الغَابة، ابن هِشَام، الإصَابَة، ابن الأثير، تاريخ الطَّبَرِي، البَلاذري، قَادة فَتح العِراق -بتصرف-.

## الفَصْلَ الثَّانِي

### أَبُو طَالِب مُحَمَّد طُغْرُلْ بِك بن مِيكَائِيل بنِ سَلْجُوق رَحِمَهُ اللهُ

يَعُودُ أَصْلُ طُغْرُل بِك إلى الأَتْرَاكِ السَّلَاجِقَةِ، وهو مِن قَبِيلَةِ قِنِق (كِنِك–kınık) التُّرْكُمَانِيَّة، وَتَتَكَوَّنُ مِن ثَلاثَة وَعِشرِينَ قَبِيلَةً أو سُلَالَةً، وَمِن هَذِهِ السُّلَالَاتِ سُلَالَةُ أوغُوز (يَعنِي سلالة القَبِيلَة)، وَكَانَت مَنَاطِقُ سُكنَاهُم مَا وَرَاءَ النَّهْرِ، أي مَنَاطِق تُركِستَانَ الشَّرقِيَّة اليَومَ وَمَا جَاوَرَهَا، وَقَد كَانَ يَقُودُهُم جَدُّه دَقَّاق (مَعنَى دقاق: أي حَدِيد مُقَوَّس) الَّذِي كَانَ فِي خِدمَةِ المَلِكِ التُّركي بِيغُو (بُوغُو) حينها، وَكَانَ جَدُّه دَقَّاق يُتقِنُ المَهَامَ العَسكَرِيَّةَ وقِيَادَةَ الجَيشِ، وَبَدَت عَلَيهِ مَظَاهِرُ التَّقَدُّمِ والإتقَانِ والإخلَاصِ، فَقَامَ هُوَ وَأتبَاعُهُ بِالهِجرَةِ فِي القَرنِ السَّادِسِ المِيلَادِي نَحوَ الغَربِ بِاتِّجَاهِ الدِّيَارِ الإسْلَامِيَّةِ، نَحوَ نَهْرِ سَيْحُون (جَنْد) وَبِذَلِك اقتَرَب مِن عَسَاكِرِ المُسلِمِينَ وَبَدَأ بِتَرَقُّبِ أخبَارِهِم، وسَادَ التَّعَارُفُ مَعَ بَعضِهِم عَن قُرب وَتَعلَّمَ دِينَهُم وَعَادَاتِهِم، ثُمَّ ارتَضَى وَاعتَنَقَ دِينَ الإسْلَامِ ثُمَّ تَبِعَهُ أتبَاعُهُ وَدَخَلُوا الإسْلَامَ أُسوَةً بِهِ.

بَعدَمَا أعلَنُوا إسلَامَهُم شَارَكُوا فِي القِتَالِ مَعَ المُسلِمِينَ ضِد الكُفَّار، وَشَنّوا غَارَات عَلَى الأَتْرَاكِ غِيرِ المُسلِمِينَ وَحَموا الأَرَاضِي

الإسْلَامِيَّةَ مِنَ المُعتَدِينَ وَازْدَادُوا قُوةً إلى قُوَّتِهِم، وَأدَّى سَلْجُوقُ دَورَ أَبِيهِ دَقَّاق بَعدَ أن وَافَتهُ المَنِيَّة (فِي جَنْد)، وَلَعِبَ سَلْجُوقُ دَورًا مُهِمًّا فِي المَنَاصِبِ العَسْكَرِيَّةِ بَعدَ أَبِيهِ دَقَّاق، وَاستَمَرَّ فِي الخِدمَةِ تَحتَ قِيَادَةِ مَلِكِ الأَتْرَاكِ بوغُو.

كَانَت هِجرَة الأَتْرَاكِ نَحوَ الغَربِ لَهَا عَدَّة أَسْبَاب، مِنهَا سِياسِيَّة وَمِنهَا اقتِصَادِيَّة ومِنها أمنِيَّةٌ، واستَقَرَّ الأمرُ بِهِم بالقُربِ مِن نَهْرِ جَيحُون ونَهَاوَنْد، وأصبَحُوا عَلَى مَقربَةٍ مِن الأَرَاضِي الإسْلَامِيَّة الَّتِي فُتِحَت بِيدِ المُسلِمِينَ قَرِيبًا بَعدَ الزَّحفِ الإسْلَامِي.

وقَد سَبَق السَّلَاجِقَةَ أنَّ مَلِك التُّركِ شَهرَ بَرَاز التَقَى فِي عَامِ (٢٢هـ - ٦٤٢م) بِعَبدِ الرَّحمَن بنِ رَبِيعَةَ وَطَلَبَ مِنهُ المُشَارَكَةَ فِي قِتَال الأرمَن، فَوَافَق عبد الرَّحمَن عَلَى القِتَال، وتَمَّ عَقدُ الصُّلحِ بَينَهُم فِي عَهدِ عُمَرَ بن الخَطَّابِ رضي الله عنه، والتَزَمُوا بِالصُّلحِ وَلَم يَقَع قِتَال بَينَ الأَتْرَاكِ والمُسلِمِينَ.[1]

(١) عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعُوا الحَبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ وَاتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ**». [سنن أَبِي دَاود: ٤٣٠٢، وحَسَّنَهُ الألبَانِي فِي صَحِيح أَبِي داود وغَيرهُ].

قال السَّندِي رَحِمَهُ اللهُ: أي اتْرُكُوا الحَبَشَةَ وَالتُّرْكَ مَا دَامُوا تَارِكِينَ لَكُمْ؛ وَذَلِكَ لِأنَّ بِلَاد الحَبَشَةِ وَعِرَةٌ وَبَيْن المُسلِمِينَ وَبَيْنَهُمْ مَفَاوِزُ وَقِفَار وَبِحَار، فَلَمْ يُكَلِّف المُسلِمِينَ بِدُخُولِ دِيَارهِمْ لِكَثْرَةِ التَّعَب. وَأمَّا التُّرْكُ فَبَأْسُهُمْ شَدِيدٌ وَبِلَادُهم بَارِدَةٌ، وَالعَرَبُ وَهُمْ جُنْدُ الإسْلام كَانوا مِنْ البِلَادِ الحَارَّةِ، فَلَمْ يُكَلِّفْهُمْ دُخُولَ بِلَادِهِمْ، وَأمَّا إِذَا دَخَلُوا بِلَادَ الإسْلَامِ وَالعِيَاذُ بِالله فلَا يُبَاحُ تَرْكُ القِتَالِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ (مَا وَدَعُوكُمْ) انتَهَى.

يَقُول الأصبَهَانِي عَن أصلِ السَّلاَجِقَةِ: اصُولُهُم تَعُودُ إلى القَبَائِلِ التُّركِيَّةِ الَّتِي عَرَفَهَا العَرَبُ بِاسم (الغزّ) (oğuz).

والَّتِي استَطَاعَت فِي القَرنِ السَّادِسِ المِيلَادِيِّ أن تُقِيمَ إمبِرَاطُورِيَّةً ذَاتَ طَابِعٍ بَدَوِيٍّ امتَدَّتْ مَن الصِّينِ إلى البَحرِ الأسوَدِ.

وحِينَ اصطَدَمَتْ بِالصِّينيِّينَ فَضَعضَعُوها، هَاجر (الغُزُّ) فِي القَرنِ الثَّامِنِ المِيلَادِيِّ (الثَّانِي الهِجرِيِّ) مُتَّجِهِينَ إلى الغَربِ فِي الصَّحَارَى الوَاقِعَةِ شَرقَ بَحرِ قَزوِينَ، دُونَ أن يَستَطِيعُوا تَحقِيقَ وَحدَتِهِم، بَل عَادُوا مُتَقَاتِلينَ، وانتَشَرَتْ فُرُوعُهُم بعيدًا، حَيثُ وَصَلَتْ إلى فَارِيَاب عَلَى نَهْر سردَاريَا (سَيْحُون) ومِن هَؤلَاء تَنحَدِرُ السَّلاَجِقَةُ.

وسَبَبُ تَسمِيَتِهِم بِهَذَا الاسمِ هُوَ انتِسَابُهُم إلى أحَد أجدَادِهِم سَلْجُوق بنِ دَقَّاق، ودَقَّاق هَذَا أو تَقَّاق كَمَا يُلَقِّبُه ابنُ الأثِير، كَانَ وَجهَ الأتْرَاكِ الغُزِّ، عَلَى جَانِبٍ مِن الرَّأي والتَّدبِير، فَأطَاعَهُ قَومُهُ واتَّبَعُوهُ، وَوُلِدَ لَهُ سَلْجُوقُ الَّذِي تَقَدَّم عِندَ مُلوكِ التُّركِ كَأبِيه، وَشَعَر يَومًا أن مَلِك التُّركِ يَتآمَرُ عَلَيه، فَاستَنفَرَ جَمَاعَتَهُ وَمَضَى بِهِم إلى دَارِ الإسْلَامِ فَصَارَ مُسلِمًا بَينَ المُسلِمِينَ، واستَقَرَّ فِي نَوَاحِي (جَنْد) ورَاحَ المُسلِمونَ عَلَى التُّركِ وغزوهم بِهِم.

وبَعدَ أن كَانَ هَؤلاء يَأخُذُون الخَرَاج مِنَ المُسلِمِينَ، طَرَدَهُم سَلْجُوق وسَادَ المُسلِمُونَ فِي تِلكَ الأَرْضِ ومَاتَ سَلْجُوقُ (بِجَنْد) بَعدَ أن عَمَّرَ مِئَة سَنَة وسَبعَ سِنِين، وتَركَ مِنَ الأولَادِ: أَرسلَان ومِيكَائِيل ومُوسَى.

وقُتل مِيكَائيلُ فِي غَزَوَاتِهِ لبِلَاد الأَتْرَاكِ، وتَركَ مِنَ الأولادِ: بيغُو وطُغْرُلْ بِك مُحَمَّد وجَغرِي بِك دَاود، فَسَارَ الثَّلاثَةُ فِي عَشَائِرِهِم، وتَقَدَّمُوا فَنَزَلُوا عَلَى بُعدِ عِشرِينَ فَرسَخًا مِن بُخَارَى، فَتوَجَّسَ الشَّر مِنهُم أمِيرُ بُخَارَى فَلَم يَسَالِمْهُم فتَرَكُوه إلى بُغرَاخَان مَلِك تُركِستَان، وأقَامُوا فِي بِلَاده، ولَكِنَّهُم ظَلُّوا فِي رِيبَةٍ مِن أمرِهِ، فتَقَرَّرَ بَين طُغْرُلْ بِك وأخِيه دَاودَ (جَغرِي بِك) أن لَا يَلتَقِيَا مَعًا فِي مَجلِس بُغرَاخَان، بَل يَنفرِدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنهُمَا بِالمَجِيء إلَيهِ، وَيَبقَى الثَّانِي بَين قَومِه خَوفًا مِن أن يَغدرَ بِهِمَا مُجتَمِعَين.

ولمَّا فَشِلَ بُغرَاخَان فِي الجَمع بَينَهُمَا فِي مَجلِسٍ وَاحِدٍ قَبَضَ عَلَى طُغْرُلْ بِك، فَاستَنفَر دَاوُد (جَغرِي بِك) قَومَه ومَشَى إلى مُقَاتَلَةِ بُغرَاخَان لإنقَاذِ أخِيهِ، فَاصطَدَمَ بِقُوى بُغرَاخَان الزَّاحِفَةِ إلَيه فَهَزَمَهَا واستَطَاع تَخلِيصَ أخِيه.

فَرَأيَا أن يَعُودَا بِقَومِهِمَا إلى قَاعِدَتِهِمَا الأولَى (جَنْد) غَيرِ البَعِيدةِ عَن بُخَارى فَيُقِيمَا فِيها[١].

كَانَ تَعَاونُ السَّلَاجِقَةِ الأَتْرَاكِ مَعَ المُسلِمِينَ فِي قِتَالِ الأَرْمَنِ مرْبحًا كَبِيرًا لِلجَيْشِ الإسْلامِيِّ حَيثُ أُعْطُوا قُوة جَدِيدة حَمَتْ دِيَارَ الإسْلام والمُسلِمِينَ، كَمَا شَارَكُوا فِي فَتحِ بِلَادٍ أُخرَى بَعدَ سُقُوط بِلَاد فَارِس الَّتِي كَانَتْ حَاجِزًا أمَامَ تَحَرُّكِ وانتِشَارِ المُسلِمِينَ.

---

(١) تَاريخ دَولَة السَّلَاجِقَة، ص٧-٨، تَألِيفُ عِزِّ الدِين مُحَمَّد بنِ مُحَمَّد بن حَامِد الأصبَهَانِي المُتَوَفَّى ٥٩٧ هـ.

وَهَكَذَا بَدَأَ الانسِجَامُ وَإقَامَةُ العلَاقَاتِ بَينَ الأَتْرَاكِ والمُسلِمِينَ، أَدَّت إلى اعتِنَاقِهِمُ الإسْلامَ بِالقَنَاعَةِ وَالرِّضَا، وَانضَمُّوا إلى صُفُوف المُسلِمِين، وَشَارَكُوا فِي جِهَاد المُشرِكِين وَالدِّفَاعِ عَنِ الإسْلامِ.

وفِي فَترَةِ الخِلَافَةِ العَبَّاسِيَّةِ سَاهَمَ الخَلِيفَةُ المُعتَصِم العَبَّاسِي فِي فَتحِ الطَّرِيقِ أَمَامَ الأَتْرَاك السَّلاجِقَةِ كَيْ يَنخَرِطُوا فِي السُّلطَةِ وإدَارَةِ الأمُورِ وتَصرِيفِ شُؤون الدَّولَةِ وتَسيِيرِ الجُنُود، ما سَاعَد الخَلِيفَةَ عَلَى تَقوِيَةِ سُلطَانِهِ، وإنقَاذِهِ مِن العَجْزِ والضَّعفِ.

كَمَا أَدَّى هَذَا إلى تَقلِيص النُّفُوذِ الفَارِسِيِّ الَّذِي كَانَ مُسَيطِرًا عَلَى الأُمُور الإدَارِية فِي الدَّولَةِ العَبَّاسِيَّةِ، وكَانَ الدَّورُ الفَارِسي وَنُفُوذُهُ موجودًا مُنذُ عَهدِ المَأمُون، وهَكَذَا بَدَأَ الأَتْرَاكُ أخذَ واستِلَامَ زِمَام السُّلطَةِ وتنسِيقَ الأمُورِ، وَلَعِبَ دَورٍ هَامٍّ حَتَّى تَأسِيسِ الدَّولَةِ السَّلْجُوقِيَّة المُستَقِلَّة.

وفِي عَام (٤٢٩هـ - ١٠٣٧م) أعلَنَ طُغْرُلْ بِك عَن قِيَامِ الدَّولَةِ السَّلْجُوقِيَّةِ مِن نِيسَابُورَ فِي شَوَّالَ، واتَّخَذَ مِن مَدِينَة الرَّي (الآن طَهرَان) مَقَرًّا لِمُلكِهِ، وَحَارَب كُلَّ مَن تَصَدَّى لَهُم، وَكَانَ هَدَفُهُم الوَحِيدُ وَالبَعِيد هو توحِيد رُقعَةِ الدِّيَارِ الإسْلَامِيَّة، وقَد اتَّسَعَت فُتُوحَاتُه مِن بِلَاد مَا وَرَاءِ النَّهرِ إلى نِيسَابُور وخُرَاسَان وكَرمَان وأذَربَيجَان وهَمَدَان وجَرجَان وبَلَخ حَتَّى شَرقِ البَحرِ المُتَوَسِّط.

وفِي عَامِ (٤٣٢هـ) اعترَفَ الخَلِيفَة العَبَّاسِي القَائِم بِأمرِ اللهِ بِالدَّولَةِ السَّلْجُوقِيَّة، وكَانَ مِن عَادَةِ الخَلِيفَةِ الاعترَافُ بِالمُنتَصِرِ وَكَانَ انتِصَارُ طُغْرُلْ بِك عَلَى دَولَةِ الغَزنَوِيين حِين ذَاكَ، وَبِذَلِكَ أخذَت الدَّولَة السَّلْجُوقِيَّةُ شرعِيَّةَ قِيَامِ دَولَتِهِم مِنَ الخِلَافَة العَبَّاسِيَّةِ.

وَبَعدَ تَمَكُّنِ الدَّولَةِ السَّلْجُوقِيَّة رَغِبَ طُغْرُلْ بِك بِالتَّمدُّدِ وَالتَّوَسُّعِ وَالاقتِرَابِ نَحوَ الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ، فَبَسَطَ نُفُوذَه نَحوَ إيرَان والعِراقِ وَقِسمٍ مِنْ بِلَاد الشَّامِ، وَذَلِك بَعدَ انتِصَار عَلَى دَولَة الغَزنَوِيين وَامتِلَاكِ أموَالِهِم، وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى مَوَارِدِ الطَّاقَةِ، فَأصبَحُوا يُمَثِّلونَ قُوةً عَسْكَرِيَّةً جَدِيدَةً فِي المَنطِقَةِ.

يَقُول الأَصْفَهَانِيُّ عَن قُوَّةِ السَّلَاجِقَةِ: الأَتْرَاك السَّلَاجِقَةُ يُمَثِّلونَ القُوةَ الإِسْلَامِيَّةَ الجَدِيدةَ الَّتِي حَلَّتْ مَحَلَّ الغَزنَوِيين فِي خُرَاسَان والمَشرِقِ الإِسْلَامِيِّ، والَّتِي غَذَّتِ الإِسْلامَ بِدِمَاءٍ فَتيَّة جَدِيدَة، سَاعَدَتْهُ عَلَى الصُّمُودِ والانتِصَار، والانتِشَار فِي بِلَادِ الرُّوم.

ذَلِكَ لأنَّ الخِلَافَةَ العَبَّاسِيَّةَ قَبلَ ذَلِكَ الوَقتِ كَانَتْ عَاجِزَةً عَن حِمَايَةِ حُدُودِها بِسَبَبِ عَدَاوَتِهَا مَعَ الدولة الفَاطِمِيَّةِ (والَّذِين استَغرَقَ حُكمُهُم أكثَرَ مِن ٢٠٠ سَنَةٍ وَحَكَمَهُم ١٤ ملكًا فاطميًّا) فِي القَاهِرَةِ. وقَدِ انتَهَزَتِ الدَّولَةُ البيزَنطِيَّةُ هَذِهِ الفُرصَةَ، وأخَذَتْ تُغِيرُ عَلَى الحُدُودِ الإِسْلَامِيَّةِ المُتَاخِمَةِ لَهَا، وتَتَوَغَّلُ فِي شَمَالِ الشَّام والجَزِيرَة. ولَكِن مِن حُسنِ حَظِّ الخِلَافَةِ العَبَّاسِيَّةِ فِي ذَلكَ الوَقتِ، أن جَاءَتهَا مِن المَشرِقِ

تِلكَ القُوَّةُ التُّركِيَّةُ الفَتِيَّةُ المَلِيئَةُ بِفُتُوَّةِ البَدَاوَةِ وعنفُوانِها، فَأنقَذَتها مِن انهِيَارٍ مُحَقَّقٍ[1].

بَدَت عَلَامَاتُ الضَّعفِ فِي الخِلَافَةِ العَبَّاسِيَّة فِي نِهَايَةِ القَرنِ الثَّانِي وبِدَايَةِ القَرنِ الثَّالِثِ الهِجرِي، بَعدَ القُوَّةِ والتَّمكِينِ، فاستَغَلَّ البُوَيْهِيون الشِّيعَةُ ضَعفَ الخِلَافَةِ السُّنِّيَّةِ، فَأدخَلُوا فِي الدِّين الشِّركِيَّات وحَرَّضُوا أهْلَ الأهوَاءِ وغُلاةَ الشِّيعَة على سَبِّ الصَّحَابَة ولَعنِهم جَهرًا، بُغيَةَ زَعزَعَةِ استِقرَارِ الخِلَافَةِ السُّنِّيَّة، فَلَم يَعتَد أهْلُ بَغدَادَ هَذَا المَنهَج المُحَرَّفَ والمُبتَدَعَ، وكُلُّ هَذَا بِرِعَايَة البُوَيْهِيِّين، الَّذِينَ يُخَالِفُونَ العَقِيدَةَ الإسْلَامِيَّةَ، وكَمَا قَامُوا بِإحيَاءِ يَومِ عَاشُورَاءَ ويَومِ الغَدِيرِ الَّذِي يَزعُمُون أنَّ الخِلَافَةَ كَانَت مِن حَقِّ عَلي بنِ أبِي طَالب رضي الله عنه، وَوَسَّعُوا مِن دَائِرَةِ النُّوَاحِ واللَّطمِ فِي الأسوَاقِ والشَّوَارِعِ، وجَعَلُوا مِنَ المَظلُومِيَّة ذَرِيعَةً لِلوُصُول إلى أهدَافِهِم الخَبِيثَة، ومِن ضِمنِ أهدَافِهِم الخَبِيثَةِ زَعزَعَةُ الخِلَافَةِ العَبَّاسِيَّةِ، واغتِصَابُ الخِلَافَة مِنَ العَرَبِ وإعادتها إلى الفُرسِ المَجُوسِ، وجَعَلُوا الدِّينَ حَسَبَ رَغَبَاتِهِم وأطمَاعِهِم وأهوَائِهِم، وتَسَاهَلُوا فِي بَعضِ المُحَرَّمَاتِ، واستَحَلُّوا الحَرَامَ وأفسَدُوا المُعتَقَدَاتِ وأنكَرُوا الشَّرِيعَة، واستَفَزُّوا الأُمَّةَ وعَمِلُوا لِلوُصُول إلى أهدَافِهِم وَلَو بَالقُوَّةِ.

---

(١) تَاريخ دَولَة السَّلاَجِقَة، ص٤، تَأليف عِزالدِين مُحَمَّد بنُ مُحُمَّد بن حَامد الأصبَهَانِي المُتَوَفَّى ٥٩٧هـ.

هَمَّ طُغْرُلْ بك بِدُخُولِ بَغدَادَ سَنَةَ (٤٤٧هـ - ١٠٥٥م)، فِي فَترَةٍ كَانَ البُوَيْهِيونَ يَتَمَتَّعُونَ بِكُلِّ إمكَانِيَّاتِ الخِلاَفَةِ العَبَّاسِيَّةِ، فدَخَلَ عَن طَرِيقِ حُلوَان وهُوَ أَقصَرُ طريقٍ تِجَاري بينَ إيرَانَ والعِراقِ، وكَانَ دُخُولُه في وَقتٍ قَد شَبَّ فيه الضَعفُ والعَجزُ فِي الخِلافَةِ.

كَانَ أَوَّلُ ظُهُورِ البُوَيْهِيين فِي بِلَادِ الفُرسِ ثُمَّ انتَشَرَت إلى العِراق وحَكَمُوا فِي العِراق أكثَرَ مِن قَرنٍ، وأحكَمُوا السَّيْطَرَة عَلَى الخِلافَة العَبَّاسِيَّة وكَانَوا يَتَلاعَبُون بِالخِلافَةِ والخَلِيفَةِ والإدَارَةِ حَسَبَ رَغَبَاتِهِم ومُيُولِهِمُ الشِّيعِيَّة.

قَال الأصبَهَانِي: سَنَة (٤٤٧هـ) بَدَت نِيَّةُ المَلِكِ السَّلْجُوقِي طُغْرُلْ بك فِي الاستِيلَاءِ عَلَى العِراقِ، فأعلَنَ أَوَّلَ مَا أعلَن أَنَّه يُرِيدُ الحَجَّ وإصِلَاحَ طَرِيقِ مَكَّةَ، وقَد مَهَّدَ بِهَذَا الشِّعَارِ لِيُبَرِّرَ زَحفَهُ إلى العِراق.

وَلَم يَكتَفِ بِهَذَا الإعلاَنِ، بَل أضَافَ إِلَيهِ أَنَّهُ يُرِيدُ المَسِيرَ إلى الشَّام ومِصرَ وإِزَالَةَ المُستَنصِر الفَاطِمِي صَاحِبِها.

وَرَاحَ يعدُّ لِأمرِ الفَتحِ عُدَّتَهُ فَاتَّصَل بِأنصَارِهِ بِاليَنُور وقَرمِيسين وحُلوَان خَاصةً لِقُربِ هَذِهِ المَنَاطِقِ مِنَ العِراق كَمَا اتَّصَل بِغَيرِهَا مِمَّا أبعَدَ مِنهَا، وأوصَاهُم بِإعدَادِ الميرَة وجَمْعِ الأقوَات والعُلوفَات والتَّهَيُّؤ لِلتَّقَدُّمِ عِندَمَا يَطلبُ منهم ذَلِك.

وكَانَ فِي بَغداد جَمَاعَات كَثِيرَة مِن الأتْرَاك فَكَتَبَ (طُغْرُلْ بِك) إلِيهِم يُمَنِّيهِم ويَعِدُهُم بِالخَيرِ العَمِيم.

أَمَّا الخَلِيفَة فَقَد كَانَ هَوَاهُ مَعَ طُغْرُلْ بِك فَأَمَرَ الخُطَبَاء فِي جَوامِعِ بَغدادَ بِأن يَخطُبُوا لِطُغْرُلْ بِك، وأَمَّا الأَتْرَاك فَقَد أنكَرُوا أمرَ طُغْرُلْ بِك وبَعَثُوا إلى الخَلِيفَة بِرَأيِهِم.

وأَمَّا المَلِك البُوَيْهِي (الرَّحِيم) فَقَد سَلَّمَ أمرَهُ إلى الخَلِيفَة لِيُقَرِّرَ مَا يَشَاء، وكَذَلِكَ فَعَل مَن كَانَ مَعَ الرَّحِيم مِن الأُمَرَاء، فَكَانَ رَأي الخَلِيفَة أن يُرسِلُوا رَسُولًا إلى طُغْرُلْ بِك بإعلاَنِ الطَّاعَة؛ فَفَعَلُوا.

ثُمَّ أَرسَلَ إلى الخَلِيفَة يَستَأذِنُهُ فِي دُخُولِ بَغدَادَ فَأذِنَ لَهُ، وخَرَجَ لاستِقبَالِهِ مَوكِبٌ حَاشِدٌ فِيه الوَزِيرُ رَئِيسُ الرُّؤسَاءِ والقُضَاةِ والنُّقَبَاءِ والأَشرَافِ وأعيَانِ الدَّولَة مَعَ وُجُوهِ الأُمَرَاءِ مِن عَسْكَرِ الرَّحِيم.

فَلَمَّا عَلِم طُغْرُلْ بِك بِتَوَجُّهِ المُستَقبِلِينَ إلَيهِ أَرسَلَ وَفدًا مِن قِبَلِهِ لِمُلاقَاتِهِم مكونًا من وَزِيرِهِ أبي نَصرٍ الكَندَرِي مَعَ بَعضِ الأُمَرَاء ودَخل بَغداد.

فإذَا كَانَ طُغْرُلْ بِك قَد استُقبِلَ - حُكُومِيًّا - بِهَذا الاستِقبَالِ الحَافِل، فَإنَّ عَوَاطِفَ الشَّعبِ لَم تكُن مُتَوَافِقَة مَعَ هَذَا الاستِقبَال الحُكُومِي.

ومِنَ الغَرِيب -كَمَا سَنَرى- أنَّ دُخُولَ طُغْرُلْ بِك إلى بَغداد وإعلاَنَ اسمِهِ فِي الخُطبَةِ، كَانَ يَعنِي نِهَايَة الحُكمِ البُوَيْهِي الشِّيعِي وحُلُول الحُكمِ السَّلْجُوقِي السُّنِّي مَكَانَهُ[١].

(١) تَارِيخ دَولَة السَّلَاجِقَة، لعِز الدِين الأصبَهَانِي، المُتَوَفَّ ٥٩٧ هـ، ص ٢٠ بِتَصرُّف.

أَسَسَ الأَمِيرُ بُوَيْه بنُ خَسرُو الدَّولَةَ البُوَيْهِيَّة، ولَه ثَلاثَةٌ مِن الأولادِ وهُم عَلي والحَسن وأحمَد، وَيَعُود نَسَبَهُم إلى الفُرس، وَكَانَ أَوَّلُ ظُهورِهم عَامَ (٣٢١هـ) عَلَى سَاحَةِ الحُكمِ فِي بِلَادِ فَارِسَ، وآخِرُ أُمَرائِهمُ المَلِك الرَّحِيم.

وفِي عَام (٣٣٤هـ) زَحَفَ الأخُ الصَّغِيرُ أحمَد بنُ بُوَيْه نَحوَ بَغداد ودَخَلَ دُونَ قِتَالٍ وقَد أطَاعَ الخَلِيفَة أوَّل الأمرِ وأخَذَ لقَبَ مُعِز الدَّولَة مِن الخَلِيفَة، وحَكَم أحمَدُ بنُ بُوَيْه العِراق أكثَرَ مِن عِشرِينَ سَنَةً، ونَشَرَ التَّشَيُّعَ وفَكَّكَ المُكَوِّنَ السُّنيَّ وزَرَعَ الكَرَاهِية والبَغضَاء بِينَ النَّاسِ، واستَفَزَّ البُوَيْهِيُّونَ أهَلَ السُّنَّةِ وأمَرُوا أئِمَّةَ المَسَاجِدِ بِلَعِنِ الخُلَفَاءِ الثَّلاثَةِ، وَلِهَذَا السَّبَبِ كَانَت تَحدُثُ مُصَادَمَاتٌ بِينَ أهَالِي بَغدَاد وتَقَعُ ضَحَايَا بَينَ المُسلِمِينَ.

فَفِي سنة (٣٣٨هـ) حَدَثَت فِتنَةٌ فِي بَغداد وَكَانَت نَتِيجَتُها نَهب الكَرخِ، وفِي رَمَضَانَ سَنَة٣٤٠هـ حَدَثَت فِتنَة أُخرَى بِالكَرخِ أيضًا بَسَبَبِ التَّشَاحُن الشِّيعِي البُوَيْهي، وفِي سَنَة (٣٤١هـ) ادّعَى قَومٌ بِتَنَاسُخِ الأروَاحِ فَأمَرَ مُعِزُّ الدَّولَة بِإطلاَقِ سَرَاحِهم وذَلِكَ لِتَشَيُّعٍ كَانَ فِيهِم[1].

وفِي سَنَة (٣٤٦هـ) تَجَدَّدَتِ اشتِبَاكَات بَين السُّنَّة والشِّيعَة فِي بَغداد بَسَبَبِ سَبِّ الصَّحَابَة وقُتِلَ أُنَاسٌ كُثُر، وفِي سَنَة (٣٤٧هـ) انتَشَرَ سبُّ

(١) كتاب النُّجُوم الزَّاهِرة في ملوك مصر والقاهرة، ليوسف بن تغري بردي الظاهري الحنفي المتوفى ٨٧٤ هـ.

وتَكفِيرُ الصَّحَابَة فِي بُلدَان كَثِيرة، وفِي سَنَة (٣٤٨هـ) اشتَعَلَت حَربٌ بَينَ طَائِفَتينِ بَسَبَبِ سَبِّ الصَّحَابَة، واستَمَرَت حَتَّى سَنَة (٣٤٩هـ) وَزَادَتِ الفِتنَةُ حَتَّى تَعَطَّلَتِ الجُمعَة فِي جَمِيع مسَاجِدِ بَغدَاد، وفِي سَنَة ٣٥١ هـ بَدَؤوا بِلَعنِ مُعَاوِيَةَ والخُلَفَاء ومَن مَنَع دَفنَ الحَسَن عَند جَدِّهِ، ولَم يمنَعْ مُعِزُّ الدَّولَة عَن ذَلِك ولَم يَعتَرِض ولَم يُبَالِ بِمَشَاعِرِ السُّنَّة، وفَضَّل المُرَاوَغَةَ والحِيلَةَ بَدَلَ المَنعِ والحَجبِ، فَهُم يُتقِنُونَ ويَتَفَنَّنُونَ بِالتَّقِيَّة، فَقَد حَدَثَ أنَّه طَلَبَ بَختِيَار بنُ مُعِز الدَّولَة العَونَ مِن أهَالِي بَغدَادَ لِصَدِّ الهُجُومِ المُرتَقبِ مِن قِبَلِ الرُّوم، فَاستَجَابَ أهَالِي بَغدَاد لِلنِّدَاءِ، وَطَلَبَ بَختِيارُ بنُ مُعِز الدَّولَة مِن الخَلِيفَة العَونَ والإمدَادَات لِتَجهِيزِ الجَيشِ لِغَزو الرُّوم، فَقَامَ الخَلِيفَةُ بِبَيعِ أثَاثِ بَيتِهِ، لِيَدفَعَ إلى بَختِيارَ الأموَالَ لِتَموِيلِ الجَيشِ، لَكِنَّ الَّذِي حَدَثَ أن بختيار ألغَى الغَزوَة وأنفَقَ الأموَالَ مُجتَمِعَةً فِي مَصلَحَتِهِ الخَاصَّة، ولَم يَكُن صَادِقًا فِي طَلَبِ الأموَالِ وإنَّما كانت غايتهُ إضعَافَ الخِلافَةِ السُّنِّيَّةِ، واستِنزَافَ الطَّاقَة والقُدرَة المَالِيَّة، وكُلُّ هَذَا مِن آثَارِ تَعَصُّبِهِم المَذهَبِي، وَوَلاؤهم لِلإسْلام شَكلي مُخَادِع لِلظَاهِر، فَمِن سُنَنِ اللهِ أنَّ يقتَصَّ ولَو بَعدَ حِين مِن المُجرِمِينَ المُعتَدِينَ ومِنَ المُفَرِّطِين وإن كَانوا مُسلِمِين.

فَلَا تَكَادُ تَمُرُّ سَنَةٌ بِدُونِ مُخَاصَمَات وإحدَاثِ فِتَنٍ، والسَّبَبُ هو سَبُّ الصَّحَابَة، وكَانَت الخِلافَةُ عَاجِزَةً عن مَنعِ الشِّيعَة مِن إهَانَةِ أهْلِ السُّنَّة، ولَهَذَا مَلَكَ البُوَيْهِيون فُرصَةً لتَوسِيعِ الحِقدِ الطَّائِفي بَينَ أفراد الأمَّة، بِحُجَّةِ مَحبَة أهْل البيتَ كَذِبًا وَزُورًا، وانتَشَرَ سَبُّ الصَّحَابَة

عَلَنًا فَمَهَّدُوا الطَّرِيق إلى الاقتِتَالِ الطَّائِفِي، وعَاثُوا فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَكَانُوا يُهِينُون الخَلِيفَة، حَتَّى وَصَلُوا إلى دَرَجَةِ عَزلِ الخَلِيفَة مِن مَنصبِه، فَصَارَت أقدَارُ الخُلَفَاءِ بِيَدِ الحُكَّامِ البُوَيْهِيين، مُتَسَلِّطِينَ عَلَيهِم يُحَدِّدُونَ مصِيرَهُم وَسُلطَتهم حَتَّى عَزلهم، وكُلُّ هَذَا بَسَبَبِ ضعفِ الخَلِيفَة العَبَّاسِيّ، ومِن جَرَائِمِ مُعِز الدَّولَة البُوَيْهِي أَنَّه أمَدَّ سَنَةَ (٣٦٠هـ)القَرَامِطَة فِي الشَّام بِالسِّلَاحِ والعُدَدِ، لِنُصرَتِهِم عَلَى أَهْلِ السُّنَّة.

قَالَ الإمَامُ الذَّهَبِي: وَضَاعَ أمرُ الإسْلَامِ بِدَولَةِ بَنِي بُوَيْه، وَبَنِي عُبَيْدٍ الرَّافِضَة، وتَرَكُوا الجهَاد، وهَاجَت نَصَارى الرُّوم، وأَخَذُوا المَدَائِن، وقَتَلوا وسَبَوا[1].

وذَكَرَ ابنُ كَثِيرِ عَن البُوَيْهِيين وَاصِفًا إِيَّاهُم: وقَد أسرَفَ الرَّافِضَة فِي دَولَة بَنِي بُوَيْه فِي حُدُود الأربَعِمائَة لِلهِجرَة ومَا حَولهَا، فَكَانَت الدَبَادِب (دُبل) تُضرَبُ بِبَغداد ونَحوِهَا مِن البِلَادِ فِي عَاشُورَاء، ويُذَرُّ الرَّمَاد والتِّبن فِي الطُّرقَاتِ والأسوَاقِ، وتُعَلَّقُ المسُوحُ (قِماش أسوَد) عَلَى الدَّكَاكِين ويُظهِرُ النَّاسُ الحُزنَ والبُكَاء، وكَثِيرٌ مِنهُم لا يَشرَبُ المَاء لَيْلتَئِذ مُوَافَقَةً لِلحُسين، لِأَنَّهُ قُتِل عَطْشَان، ثَمَّ تَخرُج النِّسَاءُ حَاسِرَات عَن وجُوهِهن يَنحن ويَلطمن وجُوهَهنَّ وصُدُورَهُنَّ، حَافِيات فِي

(١) سِيرَأعلاَم النُّبَلاء: ١٦-٢٣٢، للإمَام شَمس الدِّين محمد بن أحمد بنِ عُثْمَان الذَّهَبِي التُّرُكْمَاني، المُتوَفَّى ٧٤٨ هـ.

الأسوَاق إلى غَير ذَلِك مِن البِدَعِ الشَّنِيعَة، والأهوَاءِ الفَظِيعَة والهَنَائِك المُختَرَعَة[١].

دَعَمَ البُوَيْهِيون الفَلاَسِفَةَ وأهْلَ الكَلَام والمُتَشَيِّعِين أمثَالَ مُوسى ابنِ دَاوُد الشِّيرَازِي وهُو قِرمِطِيُّ المَذهَب، ودَعَمُوا أهْل الانحِرَاف ونَشرِ الضَّلال وأهْل الزَّيغ والعَنَت واستَخَفُّوا بأهْل السُّنَّةِ وتَحالفُوا مَعَ أعدَاءِ الدِّين، ودَعَمُوا جَمَاعَة إخوَان الصَّفَا وهُم جَمَاعَةٌ خبِيثَةٌ كَمَا وَصَفَهم ابن تيمِية حيث قال: ومِثل كِتابِ رَسَائِل إخوَان الصَّفا الَّذِي صَنَّفَه جَمَاعَة فِي دَولَة بَنِي بُوَيْه بِبَغداد، وكَانَوا مِن الصَّابِئَة المُتَفَلسِفَة المُتَحَنِّفَة، جَمَعُوا بزَعمِهم بَينَ دِينِ الصَّابِئَة المُبدِّلِين وبَينَ الحَنِيفِية وأتَوا بكَلَام المُتَفَلسِفَة، وبأشيَاءَ مِن الشَّرِيعَة، وفِيه مِنَ الكُفرِ والجَهلِ شَيءٌ كَثِير، ومَعَ هَذا فَإنَّ طَائِفَةً مِنَ النَّاس - مِن بَعضِ أكَابِرِ قُضَاةِ النَّواحِي - يَزعُم أنَّه مِن كَلام جَعفَر الصَّادق، وهَذَا قَولُ زِندِيق وتَشنِيع جَاهلٍ[٢].

وقَالَ: وَفِي دَولَةِ بَنِي بُوَيْه ونَحوِهِم الأمرُ بالعَكسِ، فَإنَّهُم كَانَ فِيهِم أصنَافُ المَذَاهِب المَذمُومَة قَومٌ مِنهُم زَنَادِقَةٌ، وفِيهِم قَرَامِطَةٌ كَثِيرون ومُتَفَلسِفَةٌ ومُعتَزِلَةٌ ورَافِضَةٌ، وهَذِهِ الأشيَاءُ كَثِيرَةٌ فِيهِم غَالِبَةٌ عَلَيهِم، فَحَصَلَ فِي أهلِ الإسْلَامِ والسُّنَّةِ فِي أيَّامِهِم مِن الوَهنِ مَا لَم يُعرَف، حَتَّى

(١) البِدَايَة والنِّهَايَة: ج٨، ص٢٢٠، للإمَام عِمَاد الدِّين أبِي الفِداء إسْماعِيل بن عُمَر بن كَثِير القُرَشِي الدِّمَشقِي، المُتَوَفَّى ٧٧٤هـ.

(٢) مجَموع الفَتَاوى، ج٤ ص٥١، لأبي العَبَّاس تَقِي الدِّين ابن تَيمِية الحَرَّاني.

استَولَى النَّصَارَى عَلَى ثُغُور الإسْلَامِ وانتَشَرَت القَرَامِطَةُ فِي أرضِ مِصرَ والمَغرِب والمَشرِقِ وَغَيرِ ذَلِكَ، وَجَرَت حَوَادِثُ كَثِيرَةٌ(١).

وقَال الخَطِيب: اعلَمُوا أسعَدَكُمُ اللهُ أنَّ ضَرَرَ البَاطِنِيَّة عَلَى فِرَقِ المُسلِمِينَ أعظَمُ مِن ضَرَرِ اليَهُودِ والنَّصَارَى والمَجُوسِ عَلَيهِم، بَل أعظَمُ مِن مَضَرَّةِ الدَّهْرِيَّة وسَائِرِ أصنَافِ الكَفَرَة عَلَيهِم، بَل أعظَمُ مِن ضَرَرِ الدَّجَّالَ الَّذِي يَظهَرُ فِي آخِرِ الزَّمَان، لأنَّ الَّذِينَ ضَلُّوا عَنِ الدِّين بِدَعوَةِ البَاطِنِيَّة مِن وَقتِ دَعوَتِهِم إلى يَومِنَا أكثَرُ مِن الَّذِين يَضِلُّون بالدَّجَّالِ فِي وَقتِ ظُهُورِه، لِأنَّ فِتنَةَ الدَّجَّالِ لا تَزِيدُ مُدَّتُها عَلَى أربَعِين يَومًا، وفَضَائِحَ البَاطِنِيَّة أكثَرُ مِن عَدَدِ الرَّمَلِ والقَطَرِ(٢).

وقال ابنُ كَثير عَنْهُم: أقبَلَ مُعِزُّ الدَّولَة أَبُو الحُسَين أحمد بنُ بُوَيْه فِي جَحَافِل فَلَمَّا اقترَبَ مِن بَغدَاد بَعَثَ إلَيهِ المُستكفِي بِالله الهَدَايَا والإنزَالات، وقَال لِلرَّسُول: أخبِرهُ أنِّي مَسرُورٌ بِه، وأنِّي إنَّما اختَفَيت مِن شَرِّ الأَتْرَاك، الَّذِين انصَرفُوا إلى المَوصِل، وبَعَث إلَيهِ بِالخلع والتُّحف، ودَخَل مُعِزُّ الدَّولَة ابنُ بُوَيْه بَغداد فِي الحَادِي عَشَرَ من جَمَادِى الأولَى مِن هَذِه السَّنَة، فَنَزَل بِبَابِ الشَّمَّاسِية، ودَخَل مِنَ الغَدِ إلى الخَلِيفَةِ، فَبَايَعَهُ، وخَلَع عَلَيه المُستَكفِي، ولَقَّبَه بمُعِزِ الدَّولَة، ولَقَب

(١) الانتِصَار لِأهلِ الأثَر ص٣٥، لأبي العَبَّاس تَقِي الدِّين ابنِ تَيمِية الحَرَّاني.

(٢) الفَرق بَيَن الفِرق، ص ٢٤٧، للإمَام أبِي منصُور عبد القَادر بن طَاهر بن مُحَمَّد البَغدادي، المُتَوَفَّى ٤٢٩هـ - ١٠٣٧م.

أخَاه أبَا الحَسن عَليًّا بِعِمَاد الدَّولَة، وأخَاهُ أبَا علي الحَسن بِرُكنِ الدَّولَة، وكَتَبَ ألقَابَهُم عَلَى الدَّرَاهِمِ والدَّنَانِير.

وَنَزَلَ مُعِزُّ الدَّولَة بِدَار مُؤنس الخَادم، وَنَزَل أصحَابُه مِن الدَّيلم فِي دور النَّاس، فَلَقِيَ النَّاسُ مِن ذَلِكَ كُلفَةً شَدِيدَةً، وَأمَّنَ مُعِزُّ الدَّولَة ابنَ شِيرزَاد، فَلَمَّا ظَهَر استكتَبَهُ عَلَى الخَرَاج، وَرَتَّبَ لِلخَلِيفَةِ بِسَبَبِ نَفَقَاتِهِ خَمسَة ألافِ دِرهَمٍ فِي كَلِّ يَومٍ، واستَقَرَّت الأمُور عَلَى هَذا النِّظَام. ولَمَّا كَانَ اليَومُ الثَّانِي والعشرُون مِن جَمَادى الآخِرَة، حَضَر مُعِزُّ الدَّولَة إلى الحَضرَة، فَجَلسَ عَلَى سَرِيرٍ بَين يَدي الخَلِيفَة، وجَاء رَجُلان مِن الدَّيلم فَمَدَّا أيدِيَهُما إلى الخَلِيفَة فَأنزَلاهُ عَن كُرسِيِّهِ، وسَحَبَاهُ، فَتَحَرَّبَت (عَلَقَت) عَمامَته فِي حَلقِهِ، ونَهَضَ مُعِز الدَّولَة واضطَرَبَت دَارُ الخِلافَةَ، حَتَّى خُلصَ إلى الحَرِيم، وتَفَاقَم الحَال، وسِيقَ الخَلِيفَة مَاشيًا، إلى دَار مُعِز الدَّولَة فَاعتُقِلَ بِهَا، وأُحضِرَ أَبُو القَاسِم الفَضْل بنُ المُقتَدِر، فَبُويع بِالخِلافَة، وَسُمِلَت عِينَا المُستكفِي، وأُودِع السِّجن، فَلَم يَزل بِه مَسجُونًا، حَتَّى كَانَت وَفَاتُهُ فِي سَنَة ثَمَان وثَلاثِينَ وثَلاثمِائَة[1].

وذكرَ القاضي أبو محمد الحسين أنه بَلَغَ مِن إهَانَة مُعِز الدَّولَة البُوَيْهِي (أحمَد) للخِلافَة العَبَّاسِيَّة ،وانتِقَاصِهُ مِن قَدرِ خُلَفَائِهَا أنَّه قَبَضَ عَلَى الخَلِيفَة المُستكفِي وَسَمَل عَينَيهِ وَحَبَسَهُ إلى أن مَاتَ، وَأجلَسَ

(١) البِدَايَة والنِّهَاية ص١٧٢٥، للإمَام عِمَاد الدِّين أبِي الفِدَاء إسْمَاعِيل بن عُمَر بن كثير القرشي الدِّمشقي، المُتَوَفَّى ٧٧٤هـ.

المُطِيعَ (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) عَلَى كُرسِي الخِلافَة، وحَدَدَ لَه رَاتِبًا مَائَة دِينَار فِي اليَوم، ثُمَّ قَطَعَ ذَلِكَ الرَّاتِب، وحَدَّدَ لَهُ إقطَاعَات يَسِيرَة يَعِيشُ مِنهَا، كَمَا عَيَّنَ لَهُ كَاتِبًا يَتَصَرَّفُ فِي شُؤونِهَا[١].

ويَذكُرُ الأصبَهَانِي مَدَى اهتِمَام السَّلاجِقَة بالتَّربيةِ والتَّعلِيم: وهَكَذَا نَرَى مِمَّا تَقَدَّم أنَّ السَّلاجِقَةَ فِي أيَّام قُوَّتِهِم اتَّخَذُوا أشخَاصًا مِن كِبَارِ مَمَالِيكِهِم أطلَقُوا عَلَيهِم الأتَابكِيَّة لِيَكُونُوا مُرَبِّينَ لِأولادِهِم فِي القَصر، وَمَنَحُوهُم إقطَاعِيَّات كَبِيرَة مُقَابِل قِيَامِهِم عَلَى شُؤونِ هَؤُلَاء الأبنَاء، وَتَأدِيَتِهِم الخِدمة العَسْكَرِيَّة وَقتَ الحَرب[٢].

وذَكَر الرَّاوَندِي فِي كِتَابِه رَاحَة الصُّدور: ولَقَد سَمِعتُ أن طُغْرُلْ بِك أعطَى لِأخِيهِ سَهمًا وَقَال لَه اكسِرهُ، فتَنَاوَلَ أخُوهُ السَّهمَ وكَسَرَهُ فِي هَوَادَة، ثُمَّ جَمَعَ لَهُ سَهمَينِ فكَسَرَهُمَا أيضًا فِي هَوَادَة، ثُمَّ أعطَاهُ ثَلاثَةً فكَسَرَهَا بِصُعُوبَةٍ، فلَمَّا بَلَغَ عَدَدُ السِّهَام أربَعَة تَعذَّرَ عَلَيهِ كَسرُهَا. فقَال لَهُ طُغْرُلْ بِك: إنَّ مَثَلَنَا مَثَل ذَلِكَ، فَإذَا تَفرَّقنَا هَانَ لِأقَلِّ النَّاس كَسرُنَا، وأمَّا إذَا اجتَمَعنَا فَلا يَستَطِيعُ أحَدٌ أن يَظفَرَ بِنَا، فَإذَا نَشَأ خِلافٌ بَينَنَا لَم يَتَيَسَّرْ لَنَا فَتحُ العَالَم، وَتَغَلَّبَ عَلَينَا الأعدَاءُ وَذَهَبَ المُلكُ مِن أيدِينَا[٣].

---

(١) التَّعليقَة ج١ ص٥٣، للقَاضِي أبِي مُحَمَّد الحُسين بن مُحَمَّد بن أحمد المروروذي المُتَوَفَّى ٤٦٢هـ.

(٢) تاريخ دَولَة السَّلَاجِقَة، ص٦، تَأليف عِز الدِّين مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن حَامد الأصبَهَانِي المُتَوَفَّى ٥٩٧هـ.

(٣) رَاحَةُ الصُّدور وآيَةُ السُّرُور فِي تَاريخ الدَّولَة السَّلْجُوقِيَّة، ص١٦٥ لمُحَمَّد بن علي بن سُليمَان الرَّاوَندِي.

حَدَثَ نِزَاعٌ بَينَ البُوَيْهِيين عَلَى الحُكم فِي الفَترَةِ الأخِيرَةِ، وكَانَ النِّزَاعُ بَينَ الإخوَةِ الثَّلاثَة، حَتَّى اندَلَعَت بَينَهُم حَربٌ، وَصَرَفُوا النَّظَر عَنِ الخَطَرِ الخَارِجِي، وَكَانَت نِهَايَتُهُم بِيَدِ السُّلطَان طُغْرُلْ بِك عِندَمَا دَخَلَ بَغداد وَقَبَضَ عَلَى آخِر حَاكِم بُوَيْهِي وَهُوَ المَلِك الرَّحِيم أَبُو نَصر خَسرُو وَعَلَى كِبَارِ أُمَرَائِه، وَأَرسَلَهُ إلى الرَّي مُكَبَّلًا، وَمَاتَ سَنَةَ (٤٥٠هـ - ١٠٥٨م)، وبِذَلِكَ انتَهَتِ الدَّولَة البُوَيْهِية وزَالَت واستؤصِلَ شَرُّهُم، وزَالَق مَعَهُم ظَاهِرة سَبِّ الصَّحَابَة، وقَذفِ أمَّهَات المُسلِمِينَ، و قُتِلَ أبو عبد الله الجَلاب شَيخ الرَّوَافِض، وأُزِيلَ السَبُّ مِن أبْوَابِ المَسَاجِدَ، وقُضِيَ عَلَى الفِتَنِ المَذهَبِية، وبِهَذَا انتَهَى حُكمُ آخِرِ أمَرَاءِ البُوَيْهِيين.

كَمَاوَقَضَى طُغْرُلْ بِك عَلَى فِتنَةِ أَبِي الحَارِث أَرسلَان البَسَاسِيرِي القَائِد التُركِي الَّذِي كَانَ مُقَرَّبًا مِن الخَلِيفَة العَبَّاسِي لَكِن كَانَ مُعتَنِقًا مَذهَبَ الفَاطِميين العُبَيْدِيين، وكَانَ يَكَاتِبُ الفَاطِمِيين وَيَعمَلُ لِصَالِحِهم ويَسعَى عَلَى قَلبِ الحُكم العَبَّاسِي لَكِن قَضَى طُغْرُلْ بِكْ عَلَيهِ، وأعَادَ الهَيبَةَ والسُّلطَةَ لِلخَلِيفَة، وَرَجَع الخَلِيفَةُ إلى مَقَرِّ خلافَتِهِ بَعدَ طَردِهِ مِنهَا، وَوَحَّدُوا العَالَمَ الإسْلَامِي، وزَادَ نُفُوذُهُم وأصبَحُوا سَادَةَ المَوقِف وَوَرِثَ ألبْ أَرسَلَان الحُكمَ بَعدَ وَفَاةِ عَمِّه طُغْرُلْ بِكْ عَام (٤٥٥هـ - ١٠٦٣م).

وتَحَدَّثَ الأصبَهَانِي عمَّا بَعدَ وَفَاةِ طُغْرُلْ بِكْ رَحِمَهُ اللهُ فَقَال: فَفِي سَنَةِ ٤٦٣ هـ - ١٠٧١م) استَطَاعَت جِيُوشُ السَّلاَجِقَة بقِيَادَةِ سُلطَانِهَا ألبْ أَرسَلَان، وبِاسمِ الخَلافَة العَبَّاسِيَّة، أن تُحرِزَ انتِصَارًا حَاسِمًا عَلَى

الإمبِرَاطُور البِيزَنطِي رُومَاس دِيُوجِينِيس، وأن تَأْخُذَهُ أَسِيرًا فِي مَوقِعَة مَلاذكِرد أو مَنَزكِرد مِن أعمَالِ خَلاط عَلَى الفُرات الأعَلَى، شمَال بُحَيرَة فَانْ (van) عِندَ أرمِينِيَّة.

لَقَد جَاءَ السَّلاَجِقَة فِي فَترَة انحِطَاط القِوَى الإسْلَامِيَّة مِنَ العَبَّاسِيين والفَاطِميين ونَجَحُوا فِي تَوحِيد المَشرِق الإسْلامِي مِن جَديد، وأعطَوا المُسلِمينَ الحَيَوية والنَّشَاط فِي الجِهَاد ضِدَّ الصَّلِيبِين والمُتَخَاذِلِينَ مِنَ البَاطِنِيين، ويُذكَر بِأنَّ طُغْرُلْ بِك سُلطَان السَّلاجِقَة كَتَبَ إلى الخَلِيفَة العَبَّاسي القَائِم بِأمرِ اللهِ مُظهِرًا وَلاَءَه لَهُ، مُؤكِدًا حُبَّهُ لِرَفعِ الرَّايَةِ الإسْلَامِيَّة وإعلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ و نَشرِ الإسْلامِ غَربًا.

وقَد أقَرَّهُ الخَلِيفَة العَبَّاسِي سَنَة (٤٣٢هـ - ١٠٤٠م) سُلطَانًا عَلَى السَّلاجِقَة، مِمَّا أكسَبَ دَولَةَ السَّلاجِقَةِ الفَتِيَّة صِفَةَ الشَّرعِيَّة وأثَارَ حَمِيَّتَهَا الدِّينِيَّة لِمُنَاجَزَة البِيزَنطِيين واستِردَادِ البِقَاع الَّتِي كَانَوا قَد احتَلُّوهَا فِي أرمِينِيَّة والأَنَاضُول، وقَد أعطَت نَتَائِجُ هَذِهِ المَوقِعَةِ سُمعَةً إسْلاَمِيَّةً ضَخمَةً لِلسَلاجِقَةِ بِاعتِبَارِ أنَّهم المَجَاهدون والمُدَافِعون عَن الإسْلام، والعَامِلون عَلَى نَشرِ الدَّعوَة، وإزَاءَ ذَلِكَ مَهَّدَت الطَّرِيق أمَامَ السَّلاجِقَة لِنَشرِ الدَعوَة فِي آسيَا الصُّغرَى حَيثُ وَجَّه ألبْ أَرسَلَان ابنَ عَمِّه سُلَيمَان قَتلمِش إلى الأَنَاضُول وأقَامَ هُنَاكَ دَولَةَ السَّلاَجِقَةِ الرُّوم، نِسبَةً إلى بِلاد الرُوم الَّتِي قَامَت فِيهَا.

ومُنذُ ذَلِك الوَقت عَمَّ الإسْلامُ في بِلاد آسِيا الصُّغرَى الَّتِي صَارت تُعرَف إلى الآن بِاسمِ بِلَادِ الأَنَاضُول الإسْلَامِيَّة.

كَذَلِكَ استَحدَثَ السَّلاجِقَة نِظَامَ المَدَارِسِ الدِّينِيَّة، وهِيَ مُنشَآة عِلمِيَّة هَدَفُهَا بَثُّ رُوحِ الجِهَادِ بَينَ المُسلِمِينَ والتَصَدِّي لِلطَائِفِيَّة، مَثَل: المَدرَسَة النِّظَامِيَّة الَّتِي أَسَّسَهَا الوَزِيرُ السَّلْجُوقِي نِظَامَ المُلك فِي بَغداد.

وسَارَ عَلَى هَذِه السِّيَاسَة نُورالدِّين مَحمُود زَنكِي فِي الشَّام ثُمَّ صَلاح الدِّين الأَيُّوبِي فِي مِصر.

ويُمكِنُ القُول بِأَنَّ الأيوبِيين هُمُ الَّذِين اهتَمُّوا فِي الوَاقِع بِبِنَاءِ المَدَارِسِ فِي أنحَاءِ مِصرَ والشَّام مُتَأَثِّرِين فِي ذَلك بِسِيَاسَةِ السَّلاجِقَة[1].

---

(١) تاريخ دَولَة السَّلَاجِقَة ص٤، تأليف عز الدِين محمد بن مُحَمَّد بن حامد الأصبَهَانِي المُتَوَفَّى ٥٩٧ هـ، بِتَصَرُّف.

# الفَصلُ الثَّالِثُ

## الأُسرَةُ الصَّفَوِيَّة ومُؤَسِّسُ الدَّولَةِ الصَّفَوِيَّة الشَّاه إسْماعِيل الأوَّل

تَبدَأُ نَشأةُ الأسرَة الصَّفَوِيَّة مِن صَفِيِّ الدِّين الأردَبِيلي، الَّذِي وُلِدَ فِي سَنَةِ (٦٥٠هـ - ٧٣٥هـ)، (١٢٥٢م - ١٣٣٤م) وهُو سُنيُّ المَذهَب، صُوفِيُّ المَشرَب، وأصُولُه مِنَ القَبَائِلِ التُّركمَانِيَّة الآذَرِيَّة، وهُوَ مِن أتبَاعِ و مُرِيدِي الشَّيخ تَاج الدِّين الزَّاهِد الكَيلَانِي الشَّافِعِي، أَسَّسَ صَفِيُّ الدِّين فِرقَةَ الصُّوفِيَّة فِي أردَبِيل وسَمَّاها بالإخوَان، ثم انتَشَرَ وسَاد أتبَاعُهُ ومريدوه بَينَ القَبَائِلِ التُّركمَانِيَّة، وتَوَسَّعَت جَمَاعَتُهُ فِي مَحَلِّ إقَامَتِه فِي أذرَبَيجَان.

وبَعدَ وَفَاةِ صَفِيِّ الدِّين الأردَبِيلي استَلَمَ ابنَهُ صَدرُ الدِّين مُوسى المَولُود سَنَة (٧٠٤هـ - ٧٩٤هـ) الفِرقَة الصُّوفِيَّة، وبَدَّلَ اسمَ الفِرقَةِ مِنَ الإخوَان إلى الطَّرِيقَة الصَّفَوِيَّة، نِسبَةً إلى اسمِ وَالِدِهِ صَفِيِّ الدِّين.

وبَعدَمَا تُوُفِّيَ صَدرُ الدِّين مُوسى بنُ صَفِيِّ الدِّين تَوَلَّى ابنُهُ خوَاجَة علي إدَارَة الطَّرِيقة الصَّفَوِية واستَمَرَّ ٣٦ سَنَة، ثُمَّ تَوَلَّى الطَّرِيقَة مِن بَعدِه ابنُه إبرَاهِيم بن خوَاجة علي، ولُقِّبَ بِشَيخ الشَّاه، وكَانَت مَظَاهِرُ الشِّيعَةِ والتَّشَيُّع عَلَيهِ وَاضِحة، وأدخَل أتبَاعَهُ بِصِرَاعَات كَثِيرَة مَعَ أهْلِ السُّنَّةِ فِي دَاغِستَان ومَاتَ سَنَةَ (٨٥١هـ).

تَوَلَّى بَعدَ مَوتِ إِبرَاهِيم بنِ خَوَاجَة علي ابنُهُ الأصغَر جُنَيد، وكَانَ أيضًا مُتَعَصِّبًا للشِّيعَة، ومُحَارِبًا لأهْلِ السُّنَّة، استَقَرَّ فِي دِيَار بَكر والتَقَى بِحَسَن أُوزُون ( يَعنِي حَسن الطَّوِيل)، وقُتِل سَنَةَ (٨٦١هـ)، فَخَلَّفَ إدَارَة الطَّرِيقَة الصَّفَوِيَّة إلى ابنِهِ حَيدَر بنِ جُنَيد، ثُمَّ تَزَوَّجَ حَيدر مِن بنتِ حَسن أُوزُون، ولُقِّبَ بِسُلطَان العَائِلَة الصَّفَوِيَّة، وأمَرَ أتبَاعَهُ بِلبسِ قلَنسوَة تَحتَوي عَلَى اثنَتي عَشرَةَ طيَّة حَمرَاء، إشَارَة إلى الاثنَي عَشَرَ إمَامًا، وسَمَّوهُم بقِزِل بَاش (أي العَمَائِم الحَمراء) وقُتِل (٨٩٣هـ).

خَلَفَ بَعدَ مَوتِ حَيدر بنِ جُنَيد ابنُهُ إسْمَاعِيل الأوَّل بنُ حَيدَر الصَّفَوِي، وُلِدَ (٨٩٢هـ - ١٤٨٧م) وكَانَ يَتَرَدَّد فِي صِغَرِه إلى صَائِغٍ اسمُهُ نَجم فِي بِلاد لَاهِيجَان، فتَعَلَّم الرَّفض[1] مِنهُ، وكَانَ يجتَمِعُ مَعَ أتبَاعِه قِزِل بَاش فِي بيت الصَّائِغ حَيثُ توجَدُ فِي هَذا البَلد سَاحَةٌ وَاسِعَة لِلفِرَق الضَّالَّة، وتَجِد الطَّرِيق مُيَسَّرَة لانتِشَار التَّشَيُّع، ونُمُو الجَهلِ مع قِلَّةِ أصحَابِ العَقِيدَة السَّلِيمَة.

استَقَرَّ الشَّاه إسْمَاعِيل فِي مَدِينَةِ كَيلَان، وأصبَحَ شَدِيد التَّشَيُّع كَمَا كَانَ أجدَادُهُ، وجَمَعَ أتبَاعَه مِن قِزِل بَاش حَولَهُ سَنَة (٩٠٥هـ-١٥٠٠م)، وتَعلَّم مِنهُم إدَارَةَ الأمُور وقِيَادَة الجيُوش وتَشَبَّع فِي السِّياسَة، واكتَسَبَ

(١) (أي الرَّافضة، هُم قَومٌ لَمَّا سُئِلَ زَيدُ بنُ عَلِي رضي الله عنه عَنِ الشَّيخَين أبِي بَكرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما تَرَحَّمَ عَلَيهِمَا فَرَفَضَهُ قَومٌ فَقَالَ لَهُم رَفَضتمُونِي - لِتَرَحُّمِهِ على الشَّيخَين- فَسُمُّوا رَافِضَة).

الحِنكَةَ والخِبرَةَ فِي الحُكمِ، وجعَلَ كُلَّ هَمِّهِ الانتِقَامَ مِن قَاتِلِ أبيهِ فَرخ يَسَار مَلِك شِيرَوَان سَنَةَ (٩٠٧هـ)، وأخَذَ البَيعَةَ مِن القَبَائِل التُّركمَانِيَّة، فَأخَذَتهُ العِزَّةُ بِالإثمِ واشتَدَّ سَاعِدُه، وقَوِيَت أركَانُه، فَتَوَجَّه نَحوَ شَمَاخِي عَلَى رَأسِ جَيْش مِن سَبعَةِ آلافِ مُقَاتِل مِن رِجَال قِزِل بَاش، وهُوَ لَم يَزل فِي الرَّابِعَةَ عَشرَةَ مِن عُمْرِهِ، ودَارَت مَعرَكَة انتَصَرَ فيها عَلَى جَيْش حَاكِم شِيروَان فَقَتَلَهُ وأحرَقَ جَسَدَهُ[1]، ونَبَشَ قَبر خَلِيلِ الله وَالِد فَرخ يَسَار، وصَادَرَ جَمِيعَ أموَالِهِم، وأزَالَهُم مِن الحُكمِ، وهُنَا تبَيَّن مَدَى قَسوَتِه واستِعمَالِهِ لِلعُنفِ، ونَجَحَ فِي السَّيطَرَة عَلَى بَاكُو، ودَعَمَ جَيْشَهُ بِالغَنَائِمِ والعَتَادِ الَّذِي استَولَى عَلَيهِ، وتمَكَّنَ مِن مُوَاصَلَةِ ومُوَاجَهَةِ أعدَائِهِ، وبَدَأَ أهَالِي إيرَان بالالتِفَافِ حَولَ الأسُرةِ الصَّفَوِيَّةِ المُنتَصِرَة فِي جَمِيعِ المُواجَهَات، واعتَبَرُوا أنَّ الشَّاه إسْمَاعِيل هو المُنقِذ لَهُم مِن الصِّرَاعَات ودَوَّامَات الأُسَرِ الحَاكِمَة السَّابِقَة.

---

(١) قَال إبرَاهِيمُ فَصِيح صِبغَة الله الحَيدَرِي ويَعُود أصلُهُ إلى سُلالَةِ العَائِلَة الصَّفَوِيَّة لِشَاه إسْمَاعِيل، ولَكِن لَم يَتَشَيَّع وهَرَبَ إلى شِمَال العِراق وبَقِي عَلَى السُّنَّة، قَالَ: كُلَّمَا سَارَ إلى مَنزِل كَثُرَت عَلَيهِ دَاعِيَةُ الفَسَاد، واجتَمَعَ مَعَهُ عَسَاكِرُ كَثِيرَة، وقَصَدَ ممَلَكَةَ شِيروَان شَاه لِمُقَاتَلَتِه، فَانهَزَمَت عَسَاكِرُ شِيروَان شَاه، وأسَرُوا شِيروَان شَاه، وأتَوا بِهِ إلى الشَّاه إسْمَاعِيل، فَأمَرَ أن يَضَعُوهُ فِي قِدْرٍ كَبِيرٍ ويَطبَخُوهُ ويَأكُلُوه. فَفَعَلُوا، ثُمَّ حَصَلَت لَهُ وَقَائع كَثِيرَةٌ جِدًّا انتَصَرَ فِيهَا، واستَولَى عَلَى خَزَائِنَ عَظِيمَةٍ. كِتَاب عِنوَانُ المَجدِ فِي بَيَان أحوَال بَغدَاد والبَصرَة ونَجدٍ، ص١١٩، تَأليف إبرَاهِيم فَصِيح بن السَّيِّد صِبغَة الله الحَيدَرِي البَغدَادِي، المتو فى ١٨٨٢م.

بَعدَ قَتلِ مَلِكِ شِيروَان رَاسَل الشَّاه إسْمَاعِيلُ قَبِيلَةَ أق قُويُونلُو أحَد حُلَفَاءِ مَلِك شِيروَان، وكَانَ الشَّاه إسْمَاعِيل عَلَى خلافٍ مَعَهُم بِسَبَبِ المَظَالِمِ مَعَ أجدَادِهِ، فَعَرَضَ عَلَيهِ إمَّا الإقرَار بالمَذهَبِ الشِّيعِي أو الانتِقَامَ لِدَمِ أبِيهِ، فَمَا كَانَ عَلَيهِم إلَّا اختِيَارُ أحَدِ المُرَّين. أحَسَّ الشَّاه إسْمَاعِيل بِتَرَاجُعِ الحُكَّام الأقوِيَاءِ أمَامَ هَجَمَاتِهِ، لِذَا جَعَلَ تَمَسُّكَهُ واصرَارَهُ عَلَى أن يَكُونَ مذهَبُ إيرَان مَذهَبًا شِيعِيًّا مُوَحَّدًا أمرًا لَا مَفَرَّ مِنهُ، وَبَالَغَ فِي طَائِفِيَّتِهِ وجعلها أولوية له وعَلَى أسَاسِها أقَامَ سِيَاسَتَهُ.

اشتَبَكَ الشَّاه إسْمَاعِيل مَعَ جَيْش أق قُويُونلُو (٩٠٧هـ - ١٥٠١م) بقِيَادَةِ الوَند مِيرْزَا، فِي مَنطِقَةِ شُرُور فَانتَصَرَ عَلَيهِم (جَيْش أق قُويُونلُو كان يُعتَبَرُ بِمَثَابَةِ حَاجِز بِينَ الصَّفَوِيين والعُثْمَانِيِّين ) فَكَسَرَ هَذا الحَاجِزَ، فَغَنِمَ مُعِدَّات عَسْكَرِية وألحَقَها بجَيْشِهِ، وتَوَجَّهَ إلى تَبْرِيز، وتَصَرَّفَ تِجَاهَ مُخَالِفِيهِ بعُنفٍ كَبِيرٍ، فَقَطَّعَ أوصَالَ كَثِيرٍ مِن الرِّجَالِ والعُلَمَاءِ والنِّسَاءِ والأطفَال، حَتَّى أمَرَ بِإخرَاجِ جُثَثِ رُؤسَاءِ قَبِيلَة أق قُويُونلُو مِن القُبُور وقَتَل أكثَرَ مِن عِشرِين ألفًا مِنَ الأبرِيَاء.

لَم يَقِف الشَّاه إسْمَاعِيل عِندَ حدودهِ الجغرافيةِ، وإنَّمَا هَاجَمَ أق قُويُونلُو فِي هَمَذان، وكَانَ يَرأسُهُمُ السُّلطَانُ مُراد ابنُ الوَند مِيرْزَا بَعدَ مَوتِ أبِيهِ الوَند مِيرْزَا، فَدَارَتْ مَعَارِكُ طَاحِنَةٌ، وانتَصَرَ فِيهِ جَيْش الشَّاه إسْمَاعِيل عَلَى جَيْش أق قُويُونلُو فَهَرَبَ السُّلطَان مرَاد إلى شِيرَاز،

واغتَنَمَ الشَّاه إسْماعِيل فُرصَةَ هُرُوبِه، فَاتَّجَهَ نَحوَ شِيرَاز، ودَخَلَ المَدِينَة وفَرَضَ عَلَيهَا المَذهَبَ الشِّيعِيَّ بِحَدِّ السَّيفِ.

قَامَ الشَّاه إسْماعِيل بِإعلَان تَأْسِيسِ الدَّولَةِ الصَّفَوِيةِ فِي إيرَان وجَعَلَ عَاصِمَتَهَا مَدِينَةَ تَبْرِيز، فَكَانَ أَوَّلَ مَلِك صَفَوِي، وبَعدَ إقرَارِ قِيَامِ الدَّولَة الصَّفَوِية، أعلَنَ أنَّ مَذهَبَ الدَّولَة هُو مَذهَبُ الشِّيعَةِ الإمَامِيَّة الاثنَي عَشرِيَّة، مَذهَبًا رَسمِيًّا فِي أنحَاءِ إيرَان دُونَ مُقَدِّمَات، وكَانَ هَذَا أَوَّلُ إنجَازَاتِه، وطَبَّقَ القَرَارَ بِشِدَّةٍ وعُنفٍ وبِحَدِّ السَّيف، وسَارَعَ بِنَشرِ مَذهَبِ التَّشَيُّع فِي أنحَاءِ إيرَان رَغْمَ أنَّ مَذهَبَ إيرَان كَانَ شَافِعِيًّا، وفيها قَلِيلٌ مِن الأحنَافِ، وأقلّ مِن ذَلِك الشِّيعَة المُتَوَاجِدُون فِي قُم وكَشَان والرَّي، ولَعِبَتْ فِرَقُ الطَّائِفَة الإسماعِيلِيَّة دورًا مُهِمًّا فِي نَشرِ التَّشَيُّع، ووَفَّرَ لَهُم الجَوَّ المُنَاسِب لِدُخُول الإيرَانِيين فِي المَذهَبِ الشِّيعِي، لَكِن رَدَّة الفِعلِ لَدَى النَّاس كَانَت عَنِيفةً حَتَّى من الشِّيعَة، فَخَاطَبُوا الشَّاه إسْماعِيل (أنَّ ثَلاثَةَ أربَاعِ سُكَّان تَبْرِيز مِنَ السُّنَّة، ولا يَدرُونَ شَيئًا عَن المَذهَبِ الشِّيعِي، ونَخَشَى أن يَقُولُوا لَا نُرِيدُ مَلِكَ الشِّيعَةِ) فَأَجَابَ الشَّاه إسْماعِيل (لا يُهِمُّنِي هَذا الأمرُ، فَاللهُ وحَضَرَات الأئِمَّة المَعصُومِين مَعِي، وأنَا لَا أخشَى أحَدًا، وبِإِذنِ اللهِ تَعَالى لَو قَال وَاحِد مِن الرَّعِية حَرفًا، فَسَأَسحَبُ سَيفِي ولَن أترُكَ أحَدًا يَعِيش) وأَمَر خُطَبَاء المَسَاجِدِ بِسَبِّ الخُلَفَاء الثَّلاثَةِ، مَعَ تَقدِيسِ الأَئِمَّة الاثنَي

عَشرِيَّة، وأَمَرَ المُؤذنِينَ بِأَن يَتلُوا فِي التَّشَهُّدِ أشهَدُ أنَّ عَلِيًّا وَلِيُّ اللهِ، وحَيَّ عَلَى خَيرِ العَمَل[١].

كَانَ وَاقِعُ حَالِ السُّكَانِ فِي إيرَان، قَبلَ الصَّفَوِيين وبَعدَهُ نِظَامًا إدَارِيًّا هَشًّا، لَا يُوَفي مُتَطَلَّبَات العَيش، وكَانَ جُمُوع النَّاس فُقَرَاء والشَّعب مَظلُومًا ولَم يَروا أَيَّ رَفَاهِيَّة فِي الحَيَاة، فَلَم تفض الفَوضَى السِّيَاسِيَّة إلى وَحدَةِ المُجتَمَع، ولَم تعطِ نَبضة الأمَل فِي الاستِقرَارِ والأَمنِ والسَّلامِ، بَل زَادَت الحُرُوب والوَيلَات والصِّرَاعَات الدَّاخِلية والخَارِجية، فَاضطُرَّ النَّاسُ الى مُسَايَرَةِ الوَضعِ العَام مَعَ السُّلطة الجَدِيدَة، وسادَتِ الأوضَاعُ الاجتِمَاعِيَّة والعَادَات والتَّقَالِيد العُرفِيَّة الهَشَّة، ومِنَ المَعلُوم أنَّ السُّكانَ القَاطِنِين فِي إيرَان، أَجنَاسُهُم مُتَنَوعة ومُختَلِفَة، فتَسَبَّبَ ذلك فِي إِضعَافِ الشَّعبِ والحُكُومَةِ، فَالشَّاه إسْمَاعِيل لَه دَوَافِع سِياسِية، والغَزَوَات المُتَعَاقِبَة لَم تنتَهِ، بَل أَجرَى لَهُم الوَيلَات وفَتَحَ لَهُم أبْوَابَ الكَوَارِثِ، مِمَّا جَعَل أمر الأمَّة ينتهي بِمُرُورِ الزَّمَن إلى انبِطَاح وشؤُمٍ.

كَمَا أنَّ حُكُومَة الشَّاه لَم تُعطِ فُرصَةً لِأهْلِ السُّنَّةِ أصحابِ الخِبرَة القَدِيمَة لِلعَمَلِ فِي البلَاطِ الصَّفَوِي، رَغمَ أَنَّهُم الأكثَرِيَّة، وذَلِك لِمُعَارَضَتِهِم السِياسَةَ المَذهَبِيَّة لإسْمَاعِيل، فَالشَّاه إسْمَاعِيل مِن أَجلِ فَرضِ

(١) من كتاب: عَالَمِ آرَاي صَفَوِي ص:٦٤

مَذهَبِهِ استَعمَل واعتَمَدَ على العُنصُرِ الشِّيعِي ومَكَّنَ الشيعة فِي البِلَاد مِن أجلِ خُطَّتِهِ التَّوَسُّعِيَّةِ، لِذَا كَانَ الصِّرَاعُ جادًّا، لِأنَّ الأكثَرِيَّةَ هم المُوَاطِنُون السُّنَّة، وعَقِيدَتهُم عَقِيدَةُ أعدَاءِ الشَّاه العُثْمَانِيين والأُزْبَكِيين، فَالرَّابِط السُّنِّيُّ الدَّاخِلِي والخَارِجي يُشَتِّت فِكرِة التَّجَمُّعِ المَذهَبِي لَهُ، وتجَمُّعُهُم يُمَثِّل لَه خَطَرًا مِنَ الطَّرَفَين الدَّاخِلِي والخَارِجِي، فرَوَّجَ الشَّاه إسْمَاعِيل وأقنَعَ الإيرَانِيين وألهَمَهُم أنَّ الأتْرَاك هُمُ أعدَاء المَاضِي والحَاضِر، ولا بُد أن يُوَاصِلُوا أُصُولَ مُلُوكِهِم القُدَامَى، لِذَا كَانَ عَلَيهِ أن يُؤجِّل حُرُوبَه الخَارِجيَّة الَّتي تُحِيطُ بِه مِنَ الشَّرقِ والغَربِ، كَيْ يَتَمَكَّنَ مِن صهرِ مُؤيِّدِيه ومُعَارِضِيهِ مِن الأتْرَاك فِي بَوتَقَة المَذهَب الشِّيعِي، الَّذِين هُم رِجَال قِزِل بَاش والقَبَائِل التُّركمَانِيَّة، ويَغتَنِم مِنهُم فرصَة نُهُوض لِلكِيان الصَّفَوِي، وتَكُون القُوة المُحَرِّكَة لهُم هِي القُوة والطَّاقة المَذهَبية مَعَ اغتِنَام القَومِيَّة لِيُسَهِّل بنَاء كِيَان الدَّولَة الصَّفَوِيَّة، واعتَمَدَ أيضًا عَلَى طَبَقَةِ رِجَال الدِّين، كَيْ يَبعَثَ فِي نُفُوس الإيرَانِيين الرُّوحَ الوَطَنِيَّة والدِّينِيَّة لإقرَار سِيَاسَتِه المَذهَبيَّة، فقَال لِعُلَمَائه: إنَّهُ سَيَجعَلُ السَّيفَ حَكَمًا بينَه وبينَ مُعَارِضِيهِ، فَبذَلِكَ اعتَقَدَ الإيرَانِيُّون وآمَنُوا بِأنَّ المَذهَب هُو العَامِل الأصلِي فِي مُقَاوَمَة السُّنَّة فِي غَرب البِلَادِ وشَرقِها.

وَمَعَ إحكَامِ السَّيطَرَةِ على أهلِ السُّنَّةِ دَاخِلَ إيرَان، عَاشَ المُسلِمُونَ السُّنَّة فِي إيرَانِ أيَّامًا حَرِجَةً جِدًّا، حَيثُ عَانَوا مِن الاضطِهَادِ الطَّائِفِي وتَعَرَّضُوا لِلقَتلِ، وأُجبِرُوا على اعتِنَاقِ مذهَبِ الإمَامِيَّة، فَكَانَ يُشَارُ

إِلَيهِم بِسَبِّ الصَّحَابَة وقَذفِ أُمَّهَاتِ المُؤمِنِينَ أو يَلقَى القَتلَ، ويُقَال بِأَنَّه قَتَلَ مِليُونَ سُنيٍّ، وانتَشَرَ السَبُّ والقَذفُ فِي الطُّرُقَاتِ والمَنَابِر والمَسَاجِدِ والأسوَاقِ، وأبدَعُوا فِي تَنظِيمِ الاحتِفَالَاتِ بِمُنَاسَبَةِ مَقتَلِ الحُسَين رضي الله عنه، وضُرِبَت رؤوسُ المُسلِمِينَ السُّنَّة بِالآلاتِ الحَادَّة، وبَدَأ اللَّطمُ ولبسُ السَّوَادِ، وأُرغِمَ السُّنَّة عَلَى ذَلِكَ، رَغمَ أنَّ كَثِيرًا مِن هَذِهِ التَّقَالِيد قَد اقتُبِسَ مِن مَرَاسِم النَّصَارَى لِعَرضِ مُعَانَاة المَسِيح والحَوَارِيِّين وَهُم عَلَى عِلمٍ بذلكَ، كما وأَضيفَ إلى الأذانِ بدعةُ أشهَدُ أنَّ عليًّا وليُّ الله، وحيَّ على خيرِ العمل.

ذُبحَ في مرو بعدَ الاستيلاء عليها أكثَرُ مِن عَشَرَة آلافٍ مِن أهْلِ السُّنَّةَ المُسلِمِينَ لِأَنَّهُم رَفَضُوا التَّشَيُّع، وقُتِل مِن العُلَمَاءِ العَجَمِ المُسلِمِينَ جَمعٌ كَثِيرٌ وحُرِّقَت كُتُبهُم، ونُبِشَت قُبُورُ العُلَماءِ والصَّالِحِين، وأُمِرَ بِإحرَاقِ جُثَثِهِم، وقُتِلَ فَقَط فِي تَبْرِيز عِشرِونَ ألفًا مِنَ المُسلِمِينَ السُّنَّة، وأبيحَت زَوجَاتُ الأمَرَاءِ وقَادَة الجُيُوش وأموَالُهُم بَعدَ قَتلِهُم، وكَانَ يَأمُرُ جُندَهُ بِالسُّجُودِ لَهُ فَيَسجُدُونَ ويُقَدِّسُونَ.

لَمْ يَنتَهِ فَتكُ الشَّاه إِسْمَاعِيل الصَّفَوِي بِأهْلِ السُّنَّة فِي إيرَانَ مِن أتباعِ المَذهَبِ الشَّافِعِي والحَنَفِي، بل استَمَرَّ بالتَّشرِيدِ الطَّائِفِي، واستَمَدَّ كُلَّ قُوَاهُ مِن القَبَائِل والعَشَائِر المُتَحَالِفَة مَعَهُ، وكَانَ فِي البِدَايَة هُو وأتبَاعُهُ يُمَثِّلُونَ الطَّرِيقَة الصُّوفِية (قِزِل بَاش) ثُمَّ تَطوَّرَت إلى مِيلِيشيَات مُسَلَّحَة مُتَشَدِّدَة، وشَكَّلُوا لِلشَاه إِسْمَاعِيل جَيْشا فتَّاكًا، وكَانَ لَهُ تَأثِير

رُوحِي عَلَى أتباعِهِ، بِحَيثُ تُنَفَّذُ أوَامِرُهُ دُونَ أي تَردُّد، فَفِي أحدِ الأيَّام حَاصَرَ أحَدَ المَسَاجِدِ فِي تَبْرِيز وأمَرَ جُنُودَهُ بِمُعَاقَبَة مِن يُعَارِضُ الخُطبَة بِاسمِ أهْلِ البَيتِ أو بِاسمِ مَذهَبِ الاثني عَشرِية، وأمَرَ بِمُدَاخَلَةٍ مِن قِبَلِ جُنُودِهِ وأتبَاعِهِ مِن قِزِل بَاش عَلَى مُخَالِفِهِ وإنزَالِ أشَدِّ العَذابِ به، وَهُنَا بَدَأ التَّحَرُّر مِن التَّقِيَّة والعَمَل بِالجَهرِ، وأعَلَنَ تَفكِيرَهُ بِحَقِ المُلُوكِيَّة لِلمَجُوس قَبلَ الإسْلام، ومِن حَقِّهِم تَورِيثُ أبنَائِهِم، وزَادَ هَذا الحَقُّ بَعدَ زَوَاجِ الحُسَين بنِ عَلي رضي الله عنهما مِن بِنتِ مَلِكِ الفُرسِ يَزدَجِرد، فَاجتَمَعَ حَقُّ الإمَامَةِ مِن الحُسَين مَعَ حَقِّ المُلُوكِيَّة مِن مَلِك الفُرس.

اهتَمَّ الشَّاه بِدَعمِ الجَيش حَتَّى لَم يَبقَ فِي خَزَائِنِهِ شَيء، فَصَارَت خَزَائِن الدولةِ خَاوِيَة مِن كثرَةِ عَطَايَاهُ، والغَرَض جَذْبُ الرِّجَال مِن غَيرِ قِزِل بَاش كَيْ يَنضَمُّوا تَحْتَ لِوَائِه، وَوَضَعَ أُسُسَ السِّياسَة وأصُول الإدَارَة والاقتِصَاد وأَسَّسَ أركَانَ الدَّولَة، فَسَاهَمت هَذِهِ الخَصَائِصُ بِاستِمرَارِ الحُكم لِمُدَّةِ قَرنينِ مِنَ الزَّمَان، وجَعَلَت صِبغَةَ حَضَارَة إيرَان صِبغَةً شِيعِيَّة إلى يَومِنا هَذَا.

مَكَّنَ الشَّاهُ القَبَائِل التُّركمَانِيَّة مِن قِزِل بَاش، وجَعَلَ مَرتَبَتهم أعَلَى مِن مَرتَبَةِ الإيرَانِيِّين، فَتَمَكَّنُوا فِي البِلَادِ وَوَرِثُوا بِمُرُورِ الزَّمَن القُوَّة والمَنَاصِبَ والأَرَاضِيَ والعَقَارَات، واتَّخَذُوا ألْقَابَ الدَّولَةِ إدَارِيًّا وعَسْكَرِيًّا، حَتَّى عُرِفَت إيرَانُ بِمَملَكَةِ قِزِل بَاش.

استَمَرَّ الشَّاه إسْمَاعِيل الصَّفَوِي فِي خُطَّتِهِ التَّوَسُّعِيَّة، فَبَدَأ يَجمَعُ أتبَاعًا له مِن آسيَا الصُّغرَى، ومِن الغَربِ، ورَاسَل السُّلطَان بَايَزِيدَ الثَّانِي بِأن يَسمَحَ لِمُرِيدِيهِ فِي الدَّولَة العُثْمَانِيَّة بِإقَامَةِ زِيَارَات إلى أردَبِيل المَقَرِّ الرُّوحِي لِلصَّفَوِيين(١).

استَخدَمَ الشَّاه إسْمَاعِيل اللُّغَةَ التُّركِيَّة كَدِعَايَة سِياسِيَّة ضِدَّ مُنَافِسِهِ السُّلطَان سَلِيم، فَقَد جَعَلَ اللُّغَةَ الرَّسمِيَّة لِلبلَاط هي اللُّغَة التُّركِيَّة، ونَظَم الشِّعرَ بِاللُّغَة التُّركِية، بينَما اتَّخَذَ مُنَافِسُهُ السُّلطَان سَلِيم اللُّغَة الفَارِسِيَّة لُغَةَ نَظمِ الشِّعر، ورَوَّجَ الشَّاه لِمَذهَبِهِ وجَلَبَ عُلَمَاءَ الشِّيعَة، وأجَّجَ أعوَانَهُ فِي الأنَاضُول الَّذِين هُم تَحْتَ حُكمِ العُثْمَانِيِّين.

انتَشَرَت قُوَّاتُ الشَّاه إسْمَاعِيل فِي أنحَاءِ إيرَان، بَعدَ أن استَولَى عَلَى مُلكِ أق قُويُونلُو، وهَزَمَ أمِيرَهُم مُرَاد بِيك وقَضَى عَلَى مُلكِ الدَّولَةِ التُّركمَانِيَّة السُّنِّيَّةَ فِي إيرَان سَنَةَ (٩٠٩هـ)، واستَولَى عَلَى فَارِس وكِرمَان وعَرَبِستَان ومَازندَرَان وأستراباد وخُرَاسَان، واستَولَى عَلَى مَدِينَةِ مَشهَدَ مَربِكَاشَان مَركَزِ الشِّيعَة، ثُمَّ ذَهَبَ إلى قُم سَنَةَ (٩٠٩هـ - ١٥٠٣م)، وبَعدَ هَذِهِ الانتِصَارَات أسرَعَ حَاكِم خُرَاسَان ومَازدرَان في تَقدِيم الطَّاعَة والوَلَاءِ لَهُ، فَسَيطَرَ عَلَى الشِّمَال والجَنُوب مِن إيرَان.

---

(١) من كتاب: تَشكِيل شَاهِنشَاهِي صَفَوِية . ص ٩١.

حَدَثَ تَمَرُّد فِي يَزِد، فَتَوَجَّهَ إِلَيهِ عَن طَرِيقِ أَصْفَهَان فَقَضَى عَلَيهِم، كَمَا وَحَدَثَ تَمَرُّد فِي أبرقو وثَارَ عَلَيهِ الأكرَاد اليَزِيدِيّون فَقَضَى عَلَيهِم.

استَولَى الشَّاه إِسْمَاعِيل عَلَى كَربَلَاءَ والنَّجَف وأدخَلَهُم فِي حَوزَةِ الصَّفَوِيين سَنَةَ (٩١٤هـ - ١٥٠٨م)، وعَيَّنَ وَالِيًا ولَقَّبَهُ بِخَلِيفَةِ الخُلَفَاء[١].

---

(١) من كتاب: عَالم آرِي صَفَوِي ص ١١٢.

ثُمَّ تَحَرَّك نَحوَ خُوزَستَان ولَرستَان وقَرَابَاغ وفَرَض عَلَيهِم المَذهَبَ الشِّيعِي، وكَانَ مَازَالَ عُمرُهُ خَمسَةً وعِشرِينَ سَنَة، واستَطَاعَ أن يُقَوِّي سَاعِدَ حُكُومَتِهِ المَركَزِيَّة فِي تَبْرِيز وفِي كَثِيرٍ مِن أنحَاءِ إيرَان.

بَعدَ هَذِهِ الانتِصَارَات أَرَادَ السُّلطَان بَايَزِيد تَدعِيمَ العَلاقَاتِ مَعَ الصَّفَوِيين، فَأَرسَلَ هَدَايَا وتَهنِئَةً إلى الشَّاه إسْمَاعِيل لِتَهدِئَة الأوضَاع ورَفعِ الأذَى عن أهْلِ السُّنَّةِ وعَدَمِ إلْحَاقِ ضَرَرٍ بِهِم، لأنَّ السُّنَّة أُجبِرُوا بِسَبَبِ المَظَالِمِ على الهُرُوب والهِجرَة إلى الأرَاضِي العُثْمَانِيَّة، وطَلَبَ مِنهُ التِزَام جَانِبِ العَقلِ فِي مُعَامَلَةِ السُّنَّة أموَاتًا وأحيَاءً، لأنَّ رِجَال جيش قِزل بَاش مِن غَيظِهِم نَبَشُوا قُبُورَ الشُّيوخِ السُّنَّة تَمَادِيًا فِي إلْحَاقِ الأذَى بِأتبَاعِ هَذَا المَذهَب.

عَزَمَ الشَّاه إسْمَاعِيل الصَّفَوِي على احتِلَالِ بَغدَاد سَنَةَ (٩١٤هـ)، فَبَعَثَ قَائِدَهُ حُسَين بِكْ لَاله، ودَخَلَ بَغدَادَ دَونَ قِتَال، ورَغمَ أنَّ أهَالِي بَغدَاد لَم يُقَاوِمُوا قُوَّاتِ الشَّاه إسْمَاعِيل لأنَّ مُحَمَّد كَمُونَة كَانَ يَعمَلُ لِصَالِحِ الشَّاه وأَخبَرَ أهَالِي بَغدَادَ بَعدلِ الشَّاه وحُسنِ تَعَامُلِهِ، فَاستَسلَمُوا وَأَخذُوا الأمَانَ، لَكِنَّهُ غَدَرَ بِهِم، وبَدَأ بِقَتلِ المُسلِمِينَ السُّنَّة وتَعذِيبِهِم وتَهدِيمِ بيُوتِهِم وتَهجِيرِهِم وسَلبِ أموَالِهِم، حَتَّى المَقَابِرُ لَم تسلَمْ مِن بَطشِهِم، وقَد تَعَرَّضَ مَسجِدُ أبِي حَنِيفَةَ لِلهَدمِ والتَّخرِيبِ، كَمَا تَعَرَّضَت مَسَاجِدُ ومَدَارِسُ أُخرَى لِلهَدمِ.

وَصَلَتْ أخبَارُ استِبدَاد الشَّاه إلى مَسَامِعِ دَارِ الخِلَافَةِ العَلِيَّةِ العُثْمَانِيَّة، بما فيها من أنبَاء عَن استِعمَالِ القُوَّةِ والبَطشِ، وبَدء حَملَة ذَبح واستِحلَال للأموَالِ والأنفُسِ وَالضرَر بالمُسلِمِينَ السُّنَّة فِي إيرَان والعِرَاق، وبَدأت حَرَكَةُ التَّمَدُّد الشِّيعِي فِي المَنطِقَة عَلَى حِسَابِ السُّنَّة فِي إيرَان والعِراق، فأدرَكُوا خُطُورَة هَذِهِ الحَرَكَاتِ لِلمَنطِقَة المُجَاوِرَة لِلسَّلطَنة العُثْمَانِيَّة، وكَانَ حِينَئِذٍ السُّلطَان سَلِيم المُلَقَّب بِيَاوُز عَلَى السُّلطَة، وأيقَنَ البلَاطُ العُثْمَانِي مَخَاطِرَهُم عَلَى العَالَمِ الإسْلامِي أجمَع، فَاجتَمَعَ مَعَ قَادَة رِجَال الدَّوْلَةِ وعُلَمَائِها، فَقَرَّرُوا الهُجُوم عَلَى الدَّولَةِ الصَّفَوِيَّة.

تَحَرَّكَت قُوَّاتُ السُّلطَان العُثْمَانِي والسلطان يَاوُز سَلِيم بِنَفسِهِ بتاريخ (٢٢محرم ٩٢٠هـ -١٤ مَارِس ١٥١٤م) مِن أدِرنَة إلى تَبْرِيزَ عَاصِمَةِ الصَّفَوِيِّين، وتَبَادَلَ مَعَ الشَّاه إسْمَاعِيل رَسَائِلَ شَدِيدَة اللَّهجَة وهُو مَا زَالَ فِي الطَّرِيق.

وَقَعَ اشتِبَاك مَعَ الشَّاه إسْمَاعِيل فِي مَوقِعَة وَادِي جَالدِرَان فِي (٢ رَجَب ٩٢٠هـ - ٢٤ أغُسطُس ١٥١٤م)، فَانتَصَرَ الجَيش العُثْمَانِي انتِصَارًا مُبِينًا بِمُسَاعَدَةِ طُوبجِيَّة عَلَى الشَّاه إسْمَاعِيل الصَّفَوِي الطَّائِفِي الدَّمَوِي، وانهَزَمَ جَيْشُهُ ودَبَّ الصِّرَاعُ بَينَ أتبَاعِ قِزِل بَاش، واهتَزَّت عَقِيدَةُ أعوَانِهِ وأتبَاعِهِ من الإمَامِيَّة والمُلُوكِيَّة، ونَشَأ القِتَال بِينَهُم وَفَرَّ الشَّاه إسْمَاعِيل تَارِكًا كُلَّ مَا يَملِكُ حَتَّى أُسِرَت إحدَى زَوجَاتِه، وقُتِل مُساعِدُهُ مُحَمَّد كَمُونَة.

لَم تَحسِم مَوقِعَةُ جَالدِرَان الصِّراعَ بَينَ الطَّرَفِين، رَغمَ أَنَّ الصَّفَوِيين نَالُوا هَزِيمَة نكراء لأن الشاه كَانَ يَترَبَّصُ العداءَ ويَنتَظِر وَقتَ المُبَاغَتَة.

نَهَضَ رُؤسَاء الأكرَادِ السُّنَّة بِطَلَبِ مُسَانَدَةٍ مِن السُّلطَان العُثْمَاني، بُغيَة إبعَادِ الحُكمِ الإيرَانِي عَن أَرَاضِيهِم، وطَلَبُوا ضَمَّهَا إلى الأَرَاضِي العُثْمَانِيَّة، وبَعدَ فترةٍ لم تدم طويلًا انضَمَّت خَمس وعُشرُونَ مَدِينَة لِلحُكمِ العُثْمَانِي رَغمًا عن الصَّفَوِيين.

أغَارَ الشَّاه إسْمَاعِيل عَلَى نَوَاحِي أرزِنجَان سَنَةَ (٩٢١هـ)، في محاولة منه لاستِفزَازَ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّة، لَكِن هُزِمَ وقُتِل قَائِدُهُ نُور عَلِي، ثُمَّ أعَادَ مُحَاوَلَة الهُجُوم على دِيَارِ بَكر وأيضا هُزِمَ هَزِيمَة قَاسِيَة مِن قِبَلِ العُثْمَانِيِّين، ثُمَّ حَاوَلَ الاستِيلَاءِ عَلَى مَاردِين عَن طَرِيق العِرَاق، فَنَجَحَ فِي بَادِئ الأمر لِأَنَّهُ فَاجَأَ الجَيشَ العُثْمَانِي، لَكِن لَم يُوَاصِل الحَربَ، فَسُرعَانَ مَا انقلبت الكفة لِصَالِحِ العُثْمَانِيِّين، واستَعَادَ العُثْمَانِيون مَاردِين، واستَولَوا عَلَى حِصنِ كِيفَا وسَنجَار وأرغَنَه وبِيرجِيك وجرمِيك[١].

بَعدَ هَذِهِ الهَزَائِم التي نَالَها، بَدَأَ يَبحَثُ عَن طُرُق أُخرَى لِلخُرُوج مِنَ المَأزِقِ، فَعَرَضَ عَلَى الدُّوَل الأورُوبِيَّة عُرَى الصَّدَاقَة والمَوَدَّة لِتَخفِيفِ عِبءِ الضَّغطِ العُثْمَاني على الصَّفَوِيين والقَادَة الأورُوبيّين،

(١) من كتاب: تَشكِيل شَاهِنشَاهِي صَفَوِي ص ٢١٥.

فَاستَبشَرَ الأورُوبيون ورَأى الشَّاه إسْمَاعِيل فُرصَة لِدَعم سِيَاسَتِهِ التَوَسُّعِيَّة، فَاستَغَلَّ فُرصَةَ التَّعَاون ورَحَّبَ بِهِم، ضِدَّ عَدُوِّهِ فِي الشَّرق الأوزْبَكيين، وفِي الغَرب العُثْمَانِيين.

استَطَاعَ العُثْمَانِيون قَطعَ طَرِيقِ تجَارَة الشَّرق مَعَ أورُوبا، ولَم تعُد تَصِل البَضَائع إلى موَانِئِ البَحرِ الأبيَض المُتَوَسِّط، وسَادَ كَسَاد فِي أنحَاءِ أورُوبَّا، وانقَطَعَ رَابِط التِّجَارَة الأورُوبيَّة مَعَ الشَّرق، بَعدَ أن كَانُوا يَصِلُونَ إلى الهِند بِسُهُولَة، وكَانَت الهند تُمَثِّلُ أغنَى بِلَاد الشَّرق فِي ذَلِك الحِين، فَانقَطَعَت السُّبُلُ عَنْهُم، لَكِن إيرَان لَعِبَت دَورًا وَسِيطًا وصَنَعَت لَهُم نُقطَةَ ارتِكَاز، ولَعِبَت دَورَ حَارِس مُعَيَّن لِمُرَاقَبَةِ خطِّ السَّيرِ لِشِبهِ القَارَّة الهِندِيَّة، ويَقُول بُوسِيك سَفِير فِردِينَاند فِي البلَاط العُثْمَاني (الإيرَانِيُّون فقَط هُم الفَاصِل بَينَنَا وبَينَ الهَلَاك)[1].

بعدَ الهَزِيمَةِ فِي مَوقِعَةِ جَالدِرَان لَم يَستَطِع الشَّاه إخمَادَ نَارِ الحِقْدِ فِي نَفسِهِ عَلَى العُثْمَانِيِّين، ولِأنَّهُ لَم يَتمَكَّنْ مِنهُم، فَفَقَدَ الشَّاه سَيطَرَتَهُ، وجُنَّ جُنُونُهُ وخارَت عَزِيمَتُهُ حَتَّى أثَّرَت عَلَى سُلُوكِهِ وأخلَاقِهِ، لِأنَّهُ لَم يَنهَزِم و لَم يجرَح أبدًا في السَّابقِ، واعتَبَرَ هَذه الهَزِيمَة مِن قَبِيلِ المُستَحِيلَات، مَعَ كَثرَةِ مَا خَاضَ مِن المَعَارِكِ والحُرُوب، ودبَّ فِيه اليَأس، وأدمَنَ عَلَى الخَمرِ، رَغمَ أنَّهُ كَانَ يَتَمَتَّعُ بِالإرَادَة الصلبَةِ والذَّكَاء والصَّبرِ والفِكرِ

---

(١) من كتاب: تَاريخ أدَبيَّاتِ إيرَان ج٤ ص ٩١.

والعَقلِ والشَّجَاعَةِ والخُشُونَة، فَصَارَ كُلُّ هَمِّهِ الانتِقَامَ مِنَ السُّلطَان سَلِيم، ثُمَّ اختَفَى بَعدَ فَترَة وعَاشَ فِي هَمَذَان ثُمَّ ذَهَبَ إلى تَبْرِيز وهَلَكَ هُنَاكَ سَنَةَ (٩٣٠هـ - ١٥٢٤م)، وكَانَ عُمْرُهُ دُونَ الثَّامِنَةِ والثَّلاثِين سَنَةً[١].

---

(١) **المصادر:**

١- كتاب عِنوان المَجد فِي بيان أحوَال بَغدَاد والبَصرَة ونَجد، تَأليف إِبرَاهِيم فَصِيح بن السَّيِّد صِبغَة الله الحَيدَرِي البَغدَادِي.

٢- تَاريخ الصَّفَوِيين وحَضَارَتِهِم للدكتور أحمد الخَولِي.

٣- (عَالم آرَاي صَفَوِي).

٤- (تَشكِيل شَاهِنشَاهِي صَفَوِية).

## الشَّاه طَهْماسب الأوَّل الصَّفَوِي
## والقَاهِر سُلَيمان القَانُونِي

مَاتَ الشَّاه إسْماعِيل الأوَّل الصَّفَوِي مؤسِّسُ الدَّولَة الصَّفَوِيَّة وَوَرثَ المُلْكَ ابنُهُ الشَّاه طَهْماسب الأوَّل المَولُود سَنَةَ (٩١٩هـ - ١٥١٤م)، فِي قَريَةِ شَهَاباد قَرِيبًا مِن أصفَهَان، أَرسَلَهُ أَبُوهُ إلى خُرَاسَان لِيَتَولَّى الإمَارَةَ تَحْتَ وِصَايَة أَمِير خَان مُوصلُو، وَرِثَ عَرْش أبيهِ سَنَةَ (٩٣٠هـ - ١٥٢٤م) وكَانَ عُمرُهُ إحدَى عَشْرَةَ سَنَة، لِذَا كَانَ وصيُّه مُتَحَكِّمًا بِالحُكْمِ وَمُدَبِّرًا لأمُورِ قَبَائِلِ قِزِل بَاش (العَمَائِمُ الحُمر) التُّركمَانِيَّة، الَّتِي أَسَّسَها وأقَامَ أركَانَها وَرَتَّبَ أهدَافَها وَالِدُهُ الشَّاه إسْماعِيل الأوَّل.

ظَهَرَت فِي عَهدِ الشَّاه طَهْماسب الأوَّل الحُرُوبُ والصِّرَاعَات دَاخِل قُوَّاتِهِ حَتَّى وصَلَت إلى حَدِّ بَعض التَّنَاقُضَات، كَما كَانَ أيَّامَ أبِيهِ، وَزَادَت المُنَازَعَاتُ وتَضَارُبُ الأطماعِ، وَلَمَ تُوَفِّر الأمنَ والاستِقرَارَ لِلنَّاس، وكُلُّ ذَلِكَ يَعُودُ إلى اعتِمادِهِ الوَحِيدِ على قُوَّاد قِزِل بَاش، حَتَّى أصبَحَت إيرَان تُعرَفُ بِمَملَكَةِ قِزِل بَاش[١].

---

(١) من كتاب: إيرَان در زَمَان صَفَوِيه ص ٣٨

استَمَرَّ الصِّرَاعُ دَاخِلَ كِيَانِ رُؤسَاءِ قِزل بَاش حَتَّى وَصَلَ إلى صِدَامٍ فِي بَعضِ الأحيَان وانقَلَبَ ضِدَّ الشَّاه طَهْماسب، فَقَد قَامَ أمِيرُ آلَامَه سُلطَان تكلو أحَد الأمَرَاءِ فِي أذَربَيجَان بِحَرَكَةِ تَمَرُّد، وادَّعَى أنَّ لَهُ حَقَّ الوَكَالَةِ والنِّيَابَةِ عَلَى السُّلطَةِ الصَّفَوِيَّة، وحَارَبَ ضِدَّ طَهْماسب، وعِندَمَا هُزِمَ لجَأَ إلى السُّلطَان العُثْماني سُلَيمان القَانُونِي، وحَرَّضَهُ عَلَى مُهاجَمَةِ الصَّفَوِيِّين، فَوَافَقَ السُّلطَانُ سُلَيمان القَانُونِي عَلَى الهَجمَةِ وتَبِعَهُ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ رؤسَاءِ قَبَائِلِ قِزل بِاش، فَمَعلُومٌ أنَّ عَهدَ طَهْماسب امتِدَادٌ لِعَصرِ أبِيه، حَيثُ لَم يَنتَهِ الصَّرَاعُ العَسْكَرِي مَعَ السُّنَّة بِجَنَاحَيهِ الشَّرقِي والغَربِي، ولَم تَرَ المَنطِقَةُ الهُدوء، فَفِي سَنَةِ (٩٣٣هـ) هَاجَمَت القُوَّاتُ الأوزْبَكيَّة السُّنِّيَّةُ قُوَّاتَ طَهْماسب فِي خُرَاسَان واستَولَوا عَلَيهِ، وانهَزَمَت قُوَّاتُ طَهْماسب وجَماعَتُهُ قِزل بَاش.

بَدَأَ الشَّاه طَهْماسِب يَسعَى إلى تَقوِيَةِ ولَمِّ شَملِ قُواتِه، فَاستَطَاعَ أن يَجمَعَ قُوَّاتهُ بَعدَ سَنَتَين، فَقَبَضَ عَلَى السُّلطَةِ بِيَد مِن حَدِيد، وفَرَضَ شَخصِيَّتَهُ على الجَمِيع، علمًا أنَّ المُنتَفِعينَ مِن أعوَانِ الصَّفَوِيين أقَلّ بِكَثِير مِن المَسحُوقِين والمُتَضرِّرِين مِن أُمَّتِهِ، فَتَوَجَّهَ نَحوَ هَراة ثُمَّ إلى قَزوِين وقُم، ثُمَّ انتَقَلَ إلى جَبهَةِ بَغداد واستَولَى عَلَيهَا، وعَادَ فِي سَنَة (٩٣٩هـ - ١٥٣٣م) إلى أذَربَيجَان لِيُؤدِّبَ مُعَارِضِيه ومُخَالِفِيه، وَوَزَّعَ المَنَاصِبَ على أعوَانِهِ مِن جَدِيد وعَيَّنَ رُؤسَاءَ مِن قُوَّادِ قِزل بَاش، لِغَرَضِ السَّيطَرَة عَلَى الأوضَاع، كَما وَأنَّه أبقَى أخاه سَام مِيرْزَا أمِيرًا عَلَى هَراة.

أَقَامَ طَهْمَاسب تَحَالُفًا سِلمِيًّا مَعَ مُلُوك أورُوبَّا ضِدَّ الخِلَافَة العُثْمَانِيَّة، فَأَرسَلَ الشَّاه طَهْمَاسب سَفِيرًا إلى مَلِكِ المَجَر والنمسَا شَارِل السَّابع ورُوسيَا وهَنغَاريَا، وكَانَ يُبَشِّرُهم بِتَحَالُف وفَتحِ بَابِ عِلَاقَاتٍ رَصِينَة مَعَهم ضِدَّ العُثْمَانِيِّين عَدُوِّهِم المُشتَرك، لَكِن هَذِهِ التَّحَالُفَات لَم تجدِ، ولَم تُقَلِّصْ مِن الوَقَائِع والاضطِرَابَات الَّتِى تَحدُث عَلَى حُدُودِ الدَّولَتَين الصَّفَوِيَّة والعُثْمَانِيَّة، بَل زَادَت مِن حِدَّة الاشتِبَاكَات ولَم يُحسَم المَوقِفُ سِيَاسِيًّا ولَا مَذهَبِيًّا.

قَصَدَ السُّلطَان سُلَيمَان القَانُونِي صوب مَدِينَةِ تَبْرِيز عَاصِمَةِ الصَّفَوِيين وذَلِكَ للاستِيلَاءِ عَلَيهَا، وتَسخِير مَنَاطِق آذَربَيجَان ونواحيها، بِمُشَارَكَةِ قُوَّاد قِزِل بَاش المُتَمَرِّدِينَ عَلَى طَهْمَاسب الأَوَّل سَنَةَ (٩٤٠هـ - ١٥٣٤م) وعَلَى رَأسِهِم آلَامه تكلو سُلطَان، فَهُزِمَ القَاص مِيرْزَا وبَهرَام مِيرْزَا شَقِيقَا الشَّاه طَهْمَاسب فِي المُوَاجَهَاتِ، وانتَقَل الشَّاه طَهْمَاسب إلى قَرَابَاغ.

بَعدَ سَيْطَرَة السُّلطَان سُلَيمَان التَّامَّة عَلَى مَنطِقَة أَذَربَيجَان، حَلَّ الشِّتَاء وبَدَأَت تَهُبُّ العَوَاصِفُ البَارِدَة، ما أدَّى إلى تَرَاكُمِ الثُّلُوج فِي الطُّرُقَات، مِمَّا اضطَرَّ الجَيشَ العُثْمَانِي إلى الرَّحِيل، خَشيَةَ أن تزِيدَ خَسَائِرُه فِي الأروَاح، فَاتَّجَهَ نَحوَ العِراق فَتَقَدَّم إلى السُّلَيمَانِيَّة ثُم إلى الموصِل ثُم استَولَى عَلَى قَلعَة بَغداد مِن مُحَمَّد تكلُو، لَكِن انتَهَزَ طَهْمَاسب الفُرصَة وعَادَ إلى تَبْرِيز، واستَجمَعَ قُوَاهُ لِمُوَاجَهَة الخَطَرِ العُثْمَانِي.

قَسَّمَ السُّلطَان سُلَيمَان جَيْشَه إلى أَجزَاء لِمُوَاجَهَةِ جَيْش الشَّاه طَهْمَاسب، فَقِسمٌ إلى غَربِ آذَربَيجَان وقِسمٌ إلى نَاحِية مَدِينَة وَان فِي شَرق تُركِيا، لَكِن تَغَلَّبَ طَهْمَاسب عَلَى الجَيشِ العُثْمَانِي، فَعِندَما عَلِمَ السُّلطَان بِالهَزِيمَةِ أَرسَلَ إِبرَاهِيم بَاشَا مَعَ فَيلَق مِنَ الجَيشِ العُثْمَانِي لِمُوَاجَهَتِهِ، لَكِن وَصَلت أَخبَار الهَزِيمة لِلمَرَّة الثَّانِيَة، فَرَجَعَ طَهْمَاسب إلى تَبرِيز وتَوَالت أَحدَاث بَين المُعَسكَرين ولَم تنتَهِ الصِّرَاعَات والحُرُوب بَين طَهْمَاسب والمَعسْكَرِ السُّنِّي بِجَنَاحَيهِ الأوزْبَكِي والعُثْمَانِي، وتَكَرَّرَت الجَولَات والحُرُوب بَينَ طَهْمَاسب الصَّفَوِي وسُلَيمَان القَانُونِي العُثْمَانِي، والَّتِي حَدَثَت فِي أَعوَام (٩٥٠هـ، و ٩٥٣هـ، و ٩٥٥هـ، و ٩٥٩هـ)، لَكِن السُّلطَان سُلَيمَان لَم يَكُن بِالشَّخصِ الَّذِي يَنسَى هَزِيمَتَهُ أَمَام الصَّفَوِيين، فَتَقَدَّم إلى إيرَان بِجَيْش كَبِير مُزَوَّد بِالعُدَّةِ والعَتَاد، واتَّجَهَ إلى تَبْرِيز بِاتِّفَاقٍ مَعَ القادةِ المُعَارِضِين مِن الصَّفَوِيِّين القَاص مِيرْزَا وآلامه تكلو، وفِعلًا استَطَاعَ أن يَستَولِي عَلَى تَبرِيز عَاصِمَةِ الصَّفَوِيين ثُمَ تَقَدَّمَ إلى وَسَطِ إيرَان، واتَّجَهَ طَهْمَاسب إلى قَزوِين واتَّخَذَها عَاصِمَةً لِلدَّولَة الصَّفَوِيَّة، وبَدَأَ يُجَهِّزُ جَيْشَهُ مِن جَدِيد بِاستِعمَالِ الدَّافع المَذهَبِي، فَاستَغَلَّ فِرصَةَ تَدَفُّقِ آلَافِ النَّاس مِن كُلِّ صُوبٍ وحَدَبٍ مِن دَاخِلِ إيرَان بغيةَ اتِّبَاعِ المَذهَبِ الشِّيعِي.

كَانَت أرمِينِيا أيضًا مَحَلَّ نِزَاع بَينَ السُّلطَان سُلَيمَان القَانُونِي وطَهْمَاسب الصَّفَوِي، فَكُلٌّ مِنهُمَا يُعَيِّنُ حَاكِمًا مِن طَرَفِهِ فِي أرمِينِيَا، ولَم

يَنتَهِ الصِّرَاعُ إلا بِالحِيلَةِ، حَيثُ تَغَلَّبَ طَهْمَاسب عَلَى الحَاكِمِ العُثْمَانِي، ممَّا اضطرَّ السُّلطَان سُلَيمَان أن يُفكِّرَ فِي الصُّلح، فَوَافقَ الشَّاه طَهْمَاسب على الطّلبِ أيضًا، واتَّفَقَا عَلَى الصُّلح، وعَلِمَ أنَّ مِن أعظَمِ الخَطَايَا مُحَارَبَةَ مَن يَطلُبُ الصُّلح .

أَسَعَدَ طَهْمَاسب استِقرَارُ العلاقَاتِ مَعَ العُثْمَانِيِّين، فَقَد كَانَ العُثْمَانِيون يَمتَلِكُونَ القُدرَةَ على المُنَاوَرَة بأسلِحَةٍ مُتَقَدِّمَة فِي ذَلِكَ العَصر كَالمَدفَعِيَّة والسُّفُنِ الحَربِيَّة، وكَانَت الدُّولُ الأوروبِّيَّة تَخشَى أُسطُورَةَ الدَّولَة العُثْمَانِيَّة، فَالدُّول الأورُوبِّيَّة تُسَانِدُ وتُسَاهِمُ وتُشَجِّعُ الصَّفَوِيين، كَيْ تُشَتِّتَ قُوَّة الدولةِ العُثْمَانِيَّة الَّتي وَصَلت أبْوَابَ أورُوبَّا فِي عَهدِ السُّلطَان سَلِيم الأوَّل، فَبِسَبَبِ عدَائِهِم لِلدَّولَة العُثْمَانِيَّة تَلَاقَت مَصَالِحُهُم، وجَعَلُوا العداءَ أسَاسَ تَقوِيَة العلَاقَاتِ الإيرَانِيَّة الأورُوبِّيَّة.

كَمَا أنَّ الشَّاه طَهْمَاسب لَم يَنسَ خَسَارَةَ وَالِدِهِ الشَّاه إسْمَاعِيل فِي مَوقِعَة جَالدِيرَان، فَكَانَ يَستَغِلُّ الوُفُودَ والتُّجَّارَ الدَّاخِلِينَ مِن إيرَان إلى العِراق بِحُجَّةِ الزِّيَارَة، ومِن خِلَالِهِم كَانَ يَتَجَسَّسُ عَلَى المُسلِمِينَ السُّنَّة، بَعدَ أن ضَعُفَ وقَلَّ نُفُوذه فِي العِراق.

استَدعَى الشَّاه طَهْمَاسب الشَّيخَ عَلي بنَ عَبد العَالِي الكَركَي مِن لُبنَان لِيَقُومَ بالدَّعوَةِ ونَشرِ التَّشَيُّع والتَّروِيجَ لآرَائِهِم، وتَرجمَة كُتُبِ العَرَبِيَّة الشِّيعِيَّة إلى اللُغَةِ الفَارِسيَّة، وذَلِكَ لِتَثقِيفِ القَارِئ الشِّيعِي،

ونَقلِ مَركَزِ الدِّرَاسَات والبُحُوث مِن العِراق إلى إيرَان، وشَجَّعَ حَرَكَةَ تَأليفِ كُتُب العَقِيدَة والتَّفسِير والأحَادِيث والفِقه، واعتَبَرَهُ مُجَدِّدَ المَذهَب، وبَدَأ يُجَاهِرُ فِي الطُّرُقَات ويُثِيرُ نِقمَةَ المُعَارِضِين، وأجَازَ سَبَّ الصَّحابةِ، وكَتَبَ كِتَابَ نَفَحَاتِ اللَّاهُوت فِي لَعنِ الجِبتِ والطَّاغُوت، وأجَازَ السُّجُودَ لِلعَبدِ، لِذَا أطلَقُوا عَلَيهِ مُختَرِعَ الشِّيعَة، سَكَنَ فِي النَّجَف وَزَارَ إيرَان، وادَّعُوا أنَّهُ الإمَام الغَائِب و صَاحِبُ الزَّمَان وخَصَّصَ لَهُ الشَّاه طَهْمَاسب مُرتَّبًا عَالِيًا ومَقَامًا جَليلًا لَايُنَافِسُهُ فِيهِمَا أحَد، ومَنَحَهُ قُرى زِرَاعِيَّة مُغرِيَة كَيْ يَحصِدَ خَرَاجَهَا، وأعطَاهُ الصَّلَاحِيَّة فَكَانَ يَأمُرُ بِعَزلِ مَن يَشَاءُ ويُنصِّبُ مَن يَشَاءُ ولَايَعتَرِضُهُ أحَد، فَأخَذَ مَكَانَة وصوتًا مِن وَرَاءِ دَعمِ الشَّاه لَه، فَهنا نرى كيفَ أنَّ سَنَدَ العُلَمَاء وتَمَكُّنَهُم بِأُمَرَائِهِم، وضَعفَهُم وعَجزَهُم أيضًا بسبب أُمَرَائِهِم، فَالسُّلطَان يحكِّم العُلَمَاء، قَد يُكرِمُهُ أو يَضطَهِدُهُ، وقَد أمره الشَّاه طَهْمَاسب بِمُغَادَرَةِ إيرَان والإقَامَة فِي العِراق، ومَنَحَهُ لَقَبَ الإمَام، وفي سَنَة (٩٤٠هـ - ١٥٣٣م) مَاتَ مَسمُومًا مِن قِبَلِ أحَدِ جُنُود قِزِل بَاش.

أَرسَلَ أهَالِي بَغداد رِسَالَة نجدة إلى السُّلطَان سُلَيمَان القَانُونِي يَشرحُون فِيهَا أوضاعَ بَغداد تَحْتَ حُكمِ الشَّاه طَهْمَاسب، ويُذَكِّرُونَهُ مَا فَعَلَهُ أَبُوه الشَّاه إسْمَاعِيل الأوَّل مِن مآسٍ، ويَطلُبُونَ العَونَ والنَّجَاةَ مِن بطشِ الصَّفَوِيين، فَاستَجَابَ السُّلطَان سُلَيمَان القَانُونِي وبَدَأ

بِالاستِعدَاد لإعَادَة بَغداد مِن الصَّفَوِيين، فَأرسَل رَسَائِل تَهدِيد لشَاه طَهْمَاسب يُوعِدُهُ ويُهَدِّدُه، فَعمَّ الخَوفُ والقَلَقُ فِي البلاطِ الصَّفَوِي.

أَرسَلَ السُّلطَان قِسمًا مِن قُوَّاتِهِ إلى تَبْرِيز في الشَّرق، ومَجمُوعَة أُخرَى إلى هَنغَاريَا بَعدَ أن حَرَّضَهُم الشَّاه طَهْمَاسب، بِالتَّحَرُّكِ ضِدَّ قُوَّات العُثْمَانِيين.

دَخَلَت قُوَّات السُّلطَان إلى تَبْرِيز واستَولَى عَلَيها، وتَوَجَّهَ السُّلطَان سُلَيمَان إلى بَغداد، وانهَزَمَ وَالِي بَغداد، ولَم يَصمُد أمَامَ القادةِ العُثْمَانِيين، وحَرَّرَ السُّلطَان بَغداد مِن الصَّفَوِيين، وأتبَعَها لِلخَلافَة العُثْمَانِيَّة، ورَمَّمَ مَا هُدِمَ مِن مَسَاجِد ومَقَابِرَ فِي سَنَةِ (٩٤١هـ - ١٥٣٤م)، ثُمَّ امتَدَّت قُوَّاتُه حَتَّى سَيطَرَ عَلَى البَحرِين والقَطِيف، وسَيطَرَ السُّلطَان عَلَى مَدِينَةِ تَبْرِيز كَامِلًا عَامَ (٩٤٤هـ)، وبِذَلِكَ ارتَحَلَ الصَّفَوِيون إلى قَزوِين وجَعَلُوها عَاصِمَتَهُم.

شَعَرَ الشَّاه طَهْمَاسب بِالضَعفِ فَطَلَبَ الصُّلح مَعَ العُثْمَانِيين سَنَة (٩٦١هـ - ١٥٥٥م) فسُمِّيَت مُعَاهَدَة آمَاسيَة.

لَكِن رَغمَ المُعَاهَدَة حَاوَل طَهْمَاسب التَّوَاصُل وفَتَحَ عَلَاقَات مَعَ أوروبَا وبِالأخَص إنكِلترَا فِي عَهدِ أليزَابيث الأولى سَنَةَ (٩٦٥هـ - ١٥٥٨م)، وكَانَت الثَّانِية تُرَحِّب وتُشَجِّع وتُحَرِّض عَلَى العُثْمَانِيين، لَكِن قدر الله أنَّ طَهْمَاسب انشَغَلَ بِالمَالِ والطَّرَبِ والنِّساءِ والشُّربِ،

فَسَادَ الفَسَادُ فِي البلاط والبِلَادِ وعَمَّت الرّشوَةُ، وانتَشَرَت المَجَاعَة وتَبِعهَا مَرَضُ الطَّاعُون سَنَة (٩٥٧هـ - ١٥٧١م)، ورَغمَ كُلِّ السَّلبِيَّات استَقَرَّت وتَطَوَّرَت المُؤسَسَات الدِّينِيَّة، وانتَشَرَت مَدَارِسُ الصَّفَوِيَّة فِي العَقدِ الأخِير مِن حَياةِ الشَّاه طَهْمَاسب، مَاتَ طَهْمَاسب سَنَةَ (٩٨٤هـ - ١٥٧٨م) مَسمُومًا حَسَبَ مَا قِيلَ مِن قِبَلِ إحدَى زَوجَاتِه، وكَانَ عُمرُهُ أربَعًا وسِتِّينَ سَنَةً وحَكَمَ ثَلَاثًا وخَمسِينَ سَنَة[1].

---

(١) المصادر:

أحسَن التَّوارِيخ، لحَسَن رُوملُو وَهُوَ مِن مُعَاصِرِ طَهْمَاسب.

تَارِيخ الصَّفَوِيين وحَضَارَتهُم، لأحمد الخَولي وبَدِيع جُمعَة.

رَوضَةَ الصَّفا ج ١٨ ص٩٨.

عَالَم آراي عَبَّاس ص٧٩-٨٤.

## الشَّاه عَبَّاس الأَوَّل بنُ الشَّاه مُحَمَّد خُدَابَندَّه بنِ طَهْمَاسب الأَوَّل بنِ الشَّاه إسْمَاعِيل الصَّفَوِي

وُلِدَ عَبَّاس مِيرْزَا فِي سَنَةِ (٩٧٨هـ - ١٥٧١م) في مَدِينَةِ هَرَاة مَركَز حُكُومَة خُرَاسَان، عندمَا بلغَ السابعةَ عشرةَ من عمرِهِ استولى على عرش أبيه محمد خذابنده ابن طهماسب الأول (ويعرف بالشاه عباس الكبير)، كَانَت أوضاعُ الدَّولَة تَسِيرُ مِنَ السّيىء إلى الأسوَأ وذَلِكَ لِحُدُوث القِتَال الدَّامِي بَين العَائِلَة الصَّفَوِيَّة الذي أدَّى إلى اضطِرَابِ الوَضعِ السِّياسِي وسَبَّبَ التَّطَاحُنَ والاغتِيَالَات بَينَ أبنَاء البَيتِ الصَّفَوِي، الَّتي أودَت بِحَياةِ عَدد مِن الحُكَّام الصَّفَوِيين، عَلَى سَبِيل المِثَال الشَّاه إسْمَاعِيل الثَّانِي وأُختُهُ بَرِيخَان خَانم وزَوجَة الشَّاه مُحَمَّد خُدَابَندَّه مَهد عَليَا والأخُ الأكبر لِشَاه عَبَّاس حَمزَة مِيرْزَا، كَانَ الشَّاه عَبَّاس صَاحِبَ دَهَاء وفِطنَة ومَكر وكَانَ طَائِفِيًّا بِشَكِل جَلِي، استَمَرَّ حُكمُهُ ٤٢ سَنَة وقَتَل مُرَبِّيه مِن قُوَات الجَيش وسَمَل أعيُنَ إخوَانِهِ أَبي طَالب مِيرْزَا وطَهْمَاسب مِيرْزَا وزَجَّ بِهِمَا في سِجنٍ فَي قَلعَة المَوت فَقَضَوا حَيَاتَهم فِي السِّجنِ حَتَّى المَوت.

بَعدَ أن تَوَلَّى حُكم الدَّولَة جَمَعَ جَيْشًا كَبيرًا مِن القَبَائِلِ بَعدَ خَلعِ أَبِيهِ وَوَحَّد صُفُوفَ قِزِل بَاش بَعدَ إنزَال عُقُوبَة بمُخَالِفِه وأصبَحَ مَرهُوبًا مِن الجَمِيع، وأعلَنَ نَفسَهُ حَاكِمًا مُطلَقًا وَصَاحِبَ كَلِمَةِ الفَصلِ، فَقَضَى أن يَتَخَلَّصَ مِن كُلِّ وَصَايَاهُ ومُنَافِسِيهِ، لَكِن بَعدَ أن استَخدَمَهُم وتَمَكَّنَ مِن الحُكم وتَمَرَّس عَلَى أَسَالِيبِ الإدَارَة والاستِقلَال، بَدَأ بِالتَّخلص مِن بَعضِ قُوَّاد قِزِل بَاش المُعَارِضِين لَهُ أوَّلًا عَن طَرِيق استِخدَامِ وَصِيِّهِ كواجهة حَتَّى تَمَكَّنَ مِن الحُكمِ ثم قَامَ بِقَتل وَصِيِّهِ مُرشِد قَلِيخَان، وقَتَلَ مُعظَم أفرَادِ أُسرَتِهِ أيضًا، وبِذَلِكَ أصبَحَ فِعلِيًّا حَاكِمًا مُطلَقًا فِي الدَّولَة، حَتَّى بَطَشَ بِكُلِّ مُخَالِفيهِ، وكَانَت عَينُهُ عَلَى وَالِدِهِ الشَّاه مُحَمَّد خُدَابَندَّه بَعدَ أن فَكَّهُ مِن الأسر، ومَنَعَهُ مِن الخُرُوج والاتِّصَال أو مُحَادَثَة قُوَّاد قِزِل بَاش، وذَلِكَ خَوفًا مِن الانقِلَابِ عَلَيهِ، وكَانَ يَصطحِبُهُ فِي بَعضِ أسفَارِهِ مَعَهُ، إلَى أن مَاتَ سَنَةَ (١٠٠٤هـ) فَاستَرَاحَ مِن أَحَدِ مُنَافِسِيه، ولَم يقتصر فِي قَسَاوَته على أبِيه وإخوَتِهِ، بَل امتَدَّ حَتَّى إلى أبنَائِه فقَتَلَ ابنَهُ صَفِي مِيرْزَا وسَمَلَ عَينَ ابنِهِ خُدَابَندَّه مِيرْزَا وَبِسَبَبِ سَملِ عَينِهِ انتَحَرَ بِشُربِ السُّم، وسَمَلَ عَينَ ابنِهِ الخَامِس مَقلى مِيرْزَا، وكُلُّ ذَلِكَ خَوفًا عَلَى عَرْشِهِ، ومَن بَقِيَ مِن أحفَادِه أبعَدَهُ عِنِ البلَاطِ فَعَاشُوا مَعَ الحَرِيم.

لَم يَبقَ أمَامَ رِجَال الدَّولَةِ بَعدَ هَذه الشِّدَّةِ الَّتي رَأوها إلا تَنفِيذُ مَآرِبه دُونَ جِدَال، حَتَّى لَو أمَرَ المَرء بِقَتلِ ابنِهِ فَلَيسَ أَمَامَهُ خَيَار إلا قتله وإلَّا أمَرَ العَكسَ وذَلِكَ بِقَتلِ الابنِ لأبِيهِ، لِذَا بَدَأ الشَّعبُ يُقَدِّسُونَهُ تَقدِيسًا

خَوفًا مِن بَطشِهِ، ولا يُخَالِفُهُ فِي الرَّأيِ والحُكم أحَدٌ ، وإن ظَنَّ بأحد مِن النَّاس الخِيَانَة سَارِعَ فِي إعدَامِهِ وَلَو كَانَ مِن قُوَّاد قِزِل بَاش أو أقربَائِهِ.

عَزَمَ الشَّاه عَبَّاس على إنشَاءِ جَيْش قَوِي، فَاتَّخَذَ لِلجَيْشِ خُطوَات عَمَلِية لِدَعمِ قُوَّاتِهِ العَسْكَرِيَّة وتَمَكّن مِن أعدَائِه، وَذَلِكَ باختِيَار مِن الرَّعَايَا الصَّفَوِيِّين ومِن غِيرِ المُسلِمِينَ مِنَ الأرمَن والشَّركَس، وأطلَقَ عَلَيهِ اسمَ شَاهسُون (حُمَاة الشَّاه)، وأمَرَ بِأن يَتَقَاضى أفرَادُ الجَيشِ رَوَاتِبَهُم مِن خزَانة الشَّاه مُقَابِل حرَاسَةِ قُصُورِهِ، وجَعَلَ الجَيشَ يَخضَعُ لأوَامِرِهِ مُبَاشَرَةً، ويَلتَفُّونَ حَولَهُ ويَتَفَانُونَ تَنفِيذِ أهدَافِهِ[١].

حَكَمَ الشَّاه عَبَّاس مِن سَنَة (٩٩٦ هـ - ١٥٨٧م) إلى( ١٠٣٨هـ - ١٦٢٨م) وأقنَعَ أتبَاعَهُ بِأدَاءِ فَرِيضَة الحَجِّ وذَلِكَ بِزِيَارَةِ مَرقَدِ الإمَام عَلِي بن مُوسَى الرضَا فِي مَشهَد بَدَلًا مِن مَكَّة، لأنَّ زِيَارَةَ الحَجِّ تستوجِبُ السَّفَر عَبرَ أرَاضِي الخلافَة العُثْمَانِيَّة وهُوَ عَلَى خلافٍ مَعَهُم، فَحَثَّ أتبَاعَهُ ورِجَالَ الدِّين على تَعظِيم قَبرِ الإمَام عَلِي بن مُوسَى الرضَا، وقَامَ الشَّاه عَبَّاس بِزِيَارَةِ قَبرِ الإمَام عَلِي بن مُوسَى مَشيًا عَلَى الأقدَام، لِيَبتَدِعَ سُنَةً جَدِيدَة لِلشِّيعَة، وأقَامَ أعيَادًا لِيَوم وِلَادَةٍ وعَزَاءٍ ووَفَاةٍ، وخَصَّصَ ثَمَانِيَة أيَّامٍ مِن رَمَضَان ذِكرَى لِلإمَام عَلِي بن أبِي طَالِب رضي الله عنه، واهتَمَّ بِإبقَاءِ صِيغَة الأذَانِ الذي أوجَدَهُ جَدُّهُ الشَّاه إسمَاعِيل، وهي عِبَارَة أشهَدُ أنَّ

---

(١) من كتاب: إيرَان در زَمَانِ صَفَوِيَة ص ٥٤.

عَليًّا وَلِيُّ الله، وحَيَّ عَلَى خَيرِ العَمَل، وسَمَّى نَفسَهُ بِكَلبِ عَتبَةِ عَلِي، أو كَلبِ عَتبَةِ الوِلَايَة، إشَارةً إلى تَبَعِيَّتِهِ لِآلِ علي بن أَبِي طَالِب رضي الله عنه ونَقَشَ هذه التسمية عَلَى خَاتمِهِ الذي كَانَ يَستَعمِلُهُ فِي المُرَاسَلَاتِ الرَّسمِيَّة.

حَدَثَت اشتِبَاكَات قَوِيّة بَينَ القُوَّاتِ الأوزْبَكِيَّة السُّنِّيَّةِ بِقِيَادَة عَبد الله خَان والقُوَّاتِ الصَّفَوِيَّة الشِّيعيَّة بقِيَادَة الشَّاه عَبَّاس، فلَم يَضمَن عَبَّاس الشَّاه حدودَهُ مِن طَرَفِ الأوزْبَكِيين السُّنَّة، فَاضطرَّ الشَّاه عَبَّاس إلى عَقدِ صُلح مَعَ الخَلافَة العُثْمَانِيَّة، فَدَخَل فِي مُفَاوَضَات لِعَقدِ صُلح فِي إسطَنبُول عَاصِمَة الدَّولَة العَلِيَّة، كَيْ يَتفرَّغَ لِمُحَاربَةِ الأوزْبَك ولَا يَدخُل مَعرَكَتين فِي آنٍ وَاحِدٍ، فَفَرَضَت الدَّولَةُ العَلِيَّةُ العُثْمَانِيَّة شُرُوطَها عَلَى الشَّاه عَبَّاس المغلُوب عَلَيهِم فَوَافَقَ الشَّاه عَبَّاس، وتَمَّ توقِيعُ عَقدِ الصُّلحِ عَامَ( ٩٩٨هـ- ١٥٨٠م).

كَانَ مَضمُونُ عَقد الصُّلح مَعَ الخَلافَة العُثْمَانِيَّة عَام ٩٩٨ هـ، هُو تَنَازُل الشَّاه عَبَّاس عَن بَعض المُدنِ الإيرَانِيَّة لِصَالِح الخَلافَة العُثْمَانِيَّة، مِنهَا تَبرِيز والوِلَايَات الغَربِيَّة مِن إيرَان وكَذَلِكَ مَن شُرُوطِ العَقدِ مَنعُ لَعنِ وسَبِّ الخُلَفَاءِ الثَّلاثة الرَّاشِدِين الأوَائِل مَعَ أمِّ المُؤمِنِين رضي الله عنهم جَمِيعًا. وتَرَكَ الشَّاه عَبَّاس ابنَ أَخِيهِ حَيدَر مِيرْزَا رَهِينَةً عِندَ العُثْمَانِيِّين مُقَابِلَ ضَمَانِ سَيرِ مُعَاهَدَةِ الصُّلح وكَان مِن ضمنِ المُعَاهَدَة الإفرَاج عَن أسرَى الطَّرفَين، وكَانَ هَدَفُ العُثْمَانِيين مِن الصُّلحِ التَّفَرُّغ لِحَربِ المُعَسْكَرِ النصرانيّ الغَربِي فِي أورُوبَّا، والهَدَفُ الثَّانِي إيقَاف الحَملَاتِ

العِدَائِيَّة الَّتِي كَانَ يَشُنُّهَا الصَّفَوِيون ضِدَّ أَهَالِي السُّنَّة فِي إِيرَان وضِدَّ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِين وأمِّ المُؤمنين رضي الله عنهم جَمِيعًا، حَيثُ اعتَبَرَ العُثْمَانيون أنفسهم أَنَّهُم خُلَفَاءُ الأمَّة، ولَا بُدَّ مِن التَّصدِّي لمن عَادَى الخُلَفَاء وأمّ المؤمِنِين والصَّحَابَة رِضوَانُ اللهِ عَلَيهِم جَمِيعًا، واعتَبَرُوا أنَّ مِن وَاجِبِهِم الشَّرعِي وَضع حَدٍّ لمُثِيرِي المُعَادَاة، واستَمَرَّت المُعَاهَدَة ١٢ عَامًا[١].

استَولَى الأوزْبَكِيون عَلَى خُرَاسَان ومَدِينَة مَشهَد وسبزوار سَنَةَ (١٠٠٢هـ) من الصَّفَوِيين، لَكِن بَعدَ وَفَاةِ المَلِك الأوزْبَكي عَبدَ الله خَان هَجَمَ الشَّاه عَبَّاس من جديد عَلَى الأوزْبَكِيِّين واستَولَى عَلَى مَدِينَة هَرَاة سَنَة (١٠٠٦هـ).

زَوَّدَ الشَّاه عَبَّاس جَيْشَهُ بِالبَنَادِقِ والمَدَافِعِ لمُوَاجَهَة الجَيش العُثْمَاني، لِأَنَّهُ أدركَ أَنَّ تَفَوُّق الجَيشَ العُثْمَانِي لَيسَ بِالعَدَدِ وإنَّمَا بِالعُدَدِ، لِأَنَّهُ يَملِكُ المَدَافِعَ والبَنَادِق، فَقَامَ الشَّاه عَبَّاس بِمُرَاسَلَةِ برِيطَانيَا لِطَلَبِ العَونِ والخِبرَةِ العَسْكَرِيَّة لِصُنعِ البَنَادِق والمَدَافِعِ، فَأَرسَلَ لَهُ الجَيش البرِيطَانِي بَعثَةً بِقِيَادَةِ إنطُونِي وَرُوبرت شَرلِي مَعَ وَفدٍ مُرافِقٍ لَهُمَا يَتكَوَّنُ مِن خَمسَةٍ وعِشرِينَ برِيطَانِيًّا قَامُوا بِتَأسِيسِ مَصَانِع لِلبَنَادِقِ والذَّخِيرَة دَاخِلَ إيرَان سَنَةَ (١٠٠٧هـ - ١٥٩٧م)،

(١) كتاب: تَارِيخ أدَبِيَات إيرَان ج٤ ص٩٩.

كَمَا وأعَانُوا جيشَ الشَّاه عَبَّاس بِرَسمِ خُططٍ عَسْكَرِيَّةٍ لِمُوَاجَهَةِ الجَيشَ العُثْمَانِي وكُلُّ ذَلِكَ سَاعَدَهُ عَلَى تَرمِيم جَيْشِهِ(١).

أكرَمَ الشَّاه عَبَّاس الوَفدَ البرِيطَانِي وأهدَى وأنعَمَ عَلَيهِم مِئَة وأربَعين خَيلًا ومِئَةَ بِغلٍ ومِئَةً مِنَ الجِمَالِ ومَبلَغًا وَافِرًا مِنَ المَال، وقَضَوا عِندَه سَتَّةَ أشهُرٍ، حَتَّى أنهَوا مَشرُوعَ تَأسِيسِ المَصَانِع لِلبَنَادِقِ والذَّخِيرَة، كُلُّ هَذَا أعَانَهُ عَلَى تَشكِيلِ مِيلِيشيَا مُسَلَّحَة ومُدَرَّبَة وَوَلَاؤها لِلمَلِك، وَوَاجِبها حِمَايتهُ مِن المَخَاطِرِ الدَّاخِلِيَّة والخَارِجِيَّة.

قَامَ الشَّاه عَبَّاس بفَتحِ بَابِ التِّجَارَة أمَامَ الأجَانِبِ، وَسَمَحَ لَهُم بِمُزَاوَلَةِ تِجَارَتِهِم حَسَبَ عَادَاتِهِم وتَقَالِيدِهِم ومُعتَقَدَاتِهِم، وأكثَرُ الأجَانِبِ الَّذِين استَقطَبَهُم كَانَوا مِن النَّصَارَى، سَمَحَ لَهُم بِإقَامَة شَعَائِرِهِم الدِّينِيَّة وعَاشُوا فِي عِزٍّ وكَرَمٍ، سَوَاءً مِن نصَارَى إيرَان أو مِن رَعَايَا الدُّول الأورُوبِيَّة، حَتَّى انتَشَرَ المُبَشِّرونَ(٢) مِنَ الأرمَن فِي أنحَاء إيرَان وأسكَنَهُم فِي أمَاكِنَ قُربَ أصْفَهَان، مَنطِقَة تُسَمَّى جلفَا، كَمَا وأصدَرَ قَوَانِينَ بِإعفَاءِ النَّصَارَى مِن الضَّرَائِب، وأمَرَ أتبَاعَهُ مِن رِجَال الدِّين بعَدَمِ التَّدَخُّلِ فِي شُؤُونِ النَّصَارَى، لِذَا أصبَحَت إيرَان مكَانًا آمنًا لِلتُّجَّار الأورُوبِّيين، وأمَرَ رِجَالَ الدِّين بعَدَمِ مُنَاقَشَتِهِم فِي أمورِ دينهم، وأبَاحَ لَهُم لَحَمَ الخِنزِير، وأمَرَ البلَاط بمُشَارَكَة

(١) من كتاب: لُغَت نَامَه - شِمَارَة ٧٦ ص ٤٢.

(٢) يطلق اسم المبشر على الذي ينشر دين النصارى، وهذه التسمية غير لائقة بهم.

النَّصَارَى واحتِسَاءِ الخَمر، وبَنَى لَهُم كَنَائِس وشَارَكَهُم فِي أعيَادِهِم ومَرَاسِيمِهِم، مُقَابِلَ التَّشدِيدِ عَلَى رَعَايَا السُّكَانِ الأصلِيين المَظلُومِين مِن سُنَّة إيرَان.

أَحَسَّ الشَّاه عَبَّاس وأدرَكَ أنَّ سَاعِدَهُ قَد اشتَدَّ، فنَوَى استِرجَاع المُدن الَّتِي تَنَازَلَ عَنْهُا بِمعَاهَدَة الصُّلح مَعَ الدَّولَة العَلِيَّةِ، مِنها مَدِينَة تَبْرِيز، وحَاوَلَ احتِلَال مَدِينَة شَروَان ودِيَارِ بَكر ثُمَّ تَوَجَّهَ نَحوَ بَغداد لِاحتِلَالها مِن جَدِيد.

كَمَا وَفَرَض عَلَى الأكرَادِ السُّنَّة فِي الشَّمالِ التَّشَيُّع فَرَفَضُوا، فَقَتَلَ وشَرَّدَ مِنهُم جَمعًا كَبِيرًا، ومَثَّلَ بِالعُلَمَاءِ فَقَطَعَ آذَانَهُم وأنُوفَهُم وأهَانَ النَّاسَ وأجبَرَ عَوَامهُم على أكلِ أنُوفِ النَّاس وآذَانِهم المَقطُوعَة، وأمَرَ الآبَاء بِقَتلِ أبنَائِهِم وإذَا رَفَضُوا أُمِرَ الأبنَاء بِقَتلِ آبَائِهِم، وسَمَلَ أعيُنَ الأسرَى العُثْمَانِيِّين والأوزْبَكِيين وقَتَلَ مِنهُم جَمعًا كَبِيرًا، إلَّا إذَا تَخَلَّى عَن دِينِهِ، وحَاصَرَ مَدِينَة هَمَذان لِأجلِ شَخصٍ وَاحِدٍ كَانَ مَطلُوبًا لَدَيهِ، وهَدَّدَهُم بِقَتلِ مَن فِيها إذَا لَم يَتِم تَسلِيمُ المَطلُوبِ لَهُ.

سَفَّرَ مَن عَصَى أوَامِرَهُ مِنَ الأكرَادِ إلى بِلَاد خُرَاسَان كَيْ يَكونَ حَاجِزًا بينه وبَينَ الأوزْبَكِيين السُّنَّة، ويَقَالُ بِأنَّهُ قَتَلَ سَبعِينَ ألفًا وَرَحَّلَ خَمسَةَ عَشرَ ألفًا مِن العَوَائِلِ الكُردِيَّة المُسلِمَة بِظُلمٍ، وَاستَطَاعَ دُخُول بَغداد بِمَكرٍ، حَيثُ أعطَى الأمَان لِأهَالِي بَغداد، ولَمَّا وَضَعُوا السِّلاح

بَدَأ يَقتُلُهُم ويُعَذِّبُهُم، وعِندَمَا تمَكَّنَ هَتَكَ حُرمَةَ البَلَد فقَتَلَ المسلمين السنة وسَفَكَ دماءهم، وهُدِّمَت المَسَاجِدُ وأُتلِفَ الزَّرْع، وخُرِّبَ ونُهِبَ مَرقَدُ الإمَام عَبدِ القَادِر الكَيلَانِي، والإمَام الأعظَم أَبِي حَنِيفَة رَحْمَةُ اللهِ عَلَيهِم، ويُقَالُ إنَّه أخَذَ الأطفَالَ والنِّسَاءَ كَعَبِيد إلى إيرَان وبَاعَهُم، واتَّجَهَ نَحوَ الشَّمَال وسَيْطَرَ عَلَى المَوصِل وكَركُوك ومَا جَاوَرَهَا، ونَكَّلَ وظَلَمَ بِالعَشَائِرِ السُّنِّيَّة، وهَذَا هُوَ أُسْلوب تَعَامُلِهِم مَعَ النَّاس، إن أحَسُّوا بِضَعفٍ استَعمَلُوا التَّقِيَّة والمَظلُومِيَّة وإن تمَكَّنُوا بَطَشُوا وقَتَلُوا، فَالحِقدُ دَفِينٌ عِندَهم مثل اليَهُود، وطَال غَدرهُ في العِراق ثُمَّ عَيَّنَ لَهُ وَالِيًا فِي بَغداد ثُمَّ غَادَرَ إلى بِلَاده.

تَعَاطَفَ الأكرَادُ فِي الشَّمَال الغَربِي مِن إيرَان مَعَ العُثْمَانِيين الرُّفَقَاءِ فِي المَذهَب السُّني، فَقَامَ الشَّاه عَبَّاس سَنَةَ (١٠١٣هـ) بِالانتِقَامِ مِن هَؤلَاء الأكرَادِ السُّنِّيين وشَرَّدَهُم مِن البِلَادِ، وأشَاعَ فِيهِم الرُّعبَ والخَوف، ووَقَعَت النِّسوَة والصبية فِي ذُلِّ الأسر، وفَتَكَ حَتَّى بالمُوَالِينَ لَهُ، رَغمَ أنَّهُم كَانَوا مُتَعَاطِفِينَ مَعَه، ومُظهِرِينَ الخُضُوعَ التَّامَّ لَهُ، وسَأَلُوا الأمَانَ عَلَى حَيَاتِهِم فَأمَّنَهُم، لَكِن بمجرَّدِ أَن وَصَلُوا إلى بلاطِه فَتَكَ بِهِم جَمِيعًا[1].

ويُقَال إنَّ الشاه عباس قد سَفَّرَ خَمسَةَ عَشرَ ألف أُسرَة مِنَ الأكرَادِ السُّنَّة مِن أرَاضِيهم إلى شَرقِ خُرَاسَان، لِيَكُونُوا فَاصِلًا بَشَرِيًّا بَينَ

(١) من كتاب: مُلحَقَات تَاريخ رَوضَة الصَّفا ج ٨ ص ٣٧٢.

الإيرَانِيِّين والأوزْبَك فِيمَا وَرَاء النَهْر، وأرَادَ بِهَذَا الإجرَاء أن يَجعَل مِن هَؤلَاءِ الأكرَادِ السُّنِّيين مَن يَتَلَقَّونَ ضَرَبَات الأوزْبَك السُّنِّيين، وبِذَلِك يَتَخَلَّصُ مِن الاثنَين، وفَرَضَ عَلَى الأكرَادِ ضَرَائِبَ وَوَضَعَهُم تَحْتَ الرَّقَابَة الصَّارِمَة، وفي المُقَابِل عَطَفَ على الأرمَن والنصارى وتَوَدَّدَ إليهم، وزِيَادَةً عَلى ذَلِكَ حَمَاهُم مِن ضَرَبَاتِ العُثْمَانِيِّين.

ولَمَّا شَعَرَ الشَّاه عَبَّاس أنَّهُ تَمَكَّنَ وامتَلَكَ قُوَّة عَسْكَرِيَّة، بَدَأ يَسلُكُ مَعَ السُّلطَة العُثْمَانِيَّة مَسلَكًا مختلفًا عَمَّا سَبَق، فَلَم يعُد يُبدِي الاحتِرَام اللَّازِم، بَل وَبَدَأ يُجَاهِرُ بِبَعضِ شُعُورِهِ تجَاهَ ألَدِّ أعدَائِهِ العُثْمَانِيين.

كَانَت تعتبرُ الخلافَة العُثْمَانِيَّة حَامِي حِمَى العَالَم السُّنِّي، فِي حِين أعلَنَت الدَّولَة الصَّفَوِيَّة نَفسَهَا حَامِي المَذهَب الشِّيعِي والتصدي لِكُل مُخَالِفِيه، مَمَّا أدَّى إلى صِرَاع بِينَهُمَا وحُدُوث اشتِبَاكَات مُسَلَّحَة بَينَ الطَّرَفَين.

بَدَأ الشَّاه عَبَّاس حَملَة لِاستِردَادِ مَدِينَة تَبْرِيز، الَّتِي تَنَازَلَ عَنْها بِمُقتَضَى اتِّفَاقِيَّة عَام (٩٩٨هـ)، واستَغَلَّ فُرصَةَ وُجُودِ وَالِي تَبْرِيز عَلي بَاشَا وجُنُودِهِ خَارِجَ تَبْرِيز، وعِندَ الوصُول إلى مِشَارِفِ تَبْرِيز لَجَأ إلى حِيلَة لكَيْ يَتَمَكَّنَ مِن استِردَادِ المَدِينَة، فَأمَرَ أتبَاعَهُ مِن الجُنودِ بِالتَّخَفِّي، وإبدَالِ البَدلَة العَسْكَرِيَّة بِلِبَاسِ مَدَنِي، ودُخُول المَدِينَة خُفيَةً بزِيِّ التُّجَّار لِخِدَاعِ الجُنُود، كَيْ يَتِمَّ الهُجُومُ مِنَ الدَّاخِلِ والخَارِجِ، ولَا يَبقَى أمَامَ الجُنُودِ العُثْمَانِيين إلا الاستِسْلامُ أو الهَزِيمَة.

استَطَاعَ الشَّاه عَبَّاس استِردَادَ تَبْرِيز، بِفَضلِ هَذِهِ الخَدِيعَة، بَعدَ أن ظَلَّت عِشرِينَ عَامًا تَحْتَ الحُكمِ العُثْمَاني(١).

عندَمَا رَجَعَ علي بَاشَا وجُنُودُهُ نَزَلَ قُربَ تَبْرِيز لِيُعِيدَ تَنظِيمَ صُفُوفِهِ، لَكِن الشَّاه عَبَّاس عَاجَلَهُم وتَمَكَّنَ مِن أسرِ علي بَاشَا وقَتْلِ عَدَدٍ كَثِيرٍ مِن جُنُودِهِ ثُمَّ استَمَرَّ فِي استِردَادِ مُدُنٍ وَاقِعَةٍ أطرَاف أذَربَيجَان.

حَاوَلَت الجُيُوشُ العُثْمَانِيَّة استِردَادَ المَنَاطِقِ المَسلُوبَة مِنهُ سَنَةَ (١٠١٢هـ) بقِيَادَة علي بَاشَا، كَمَا وَحَاوَلَت مَرَّة أُخرَى في سَنَةِ (١٠١٤هـ) بقِيَادَة جغَال أوغلِى، وفي سَنَة (١٠٢٥هـ) بقِيَادَة مُحَمَّد بَاشَا، لَكِن كُلّ الجُهُود باءت بالفشل فِي استِرجَاعِ مَدِينَة تَبْرِيز والمُدُنِ الوَاقِعَة في أَطرَاف أذَربَيجَان، وبَقِيَ مِيزَانُ القُوَّة فِي المَنطَقَة بيَد الجَيش الصَّفَوِي.

عَزَمتِ الدَّولَةُ العُثْمَانِيَّةُ على إجرَاءِ مُعَاهَدَةِ الصُّلحِ مَعَ الشَّاه عَبَّاس سَنَةَ (١٠٢٧هـ)، فَأَرسَلَ خَلِيل بَاشَا لِإجرَاءِ تَوقِيع مُعَاهَدَةٍ ضِمنَ نَفسِ شُرُوط مُعَاهَدة (١٠٢٠ هـ)، مَعَ إِضَافَة تَعَهُّد الشَّاه بِإِرسَال مِئَةِ حِملٍ مِن الحَرير سَنَوِيًّا، فَوَافَقَ الشَّاه عَلَى شُرُوطِ المُعَاهَدة، فَسَادَ السَّلَامُ فِي مَنطقَة أذَربَيجَان، وَانتَقَل الصِّراعُ إلى السَّاحَة العَرَبِيَّة.

---

(١) من كتاب: زندگانيَ شاه عَبَّاس أول، ج٥ص ص٢٢. وكتاب: تاريخ إيرَانِ، از مغول تا انشاريه ص ٣٢٥.

حَدَثَت بَعضَ الاضطِرَابَات فِي بَغدَاد بينَ يُوسُف بَاشَا حَاكِم بَغدَاد المَوَالِي لِلدَّولَة العُثْمَانِيَّة وبَينَ أَحَد القَادَة اسمُهُ بَكر صُوبَاشِي، فَانتَهَى الصِّرَاعُ بِمَقتَلِ يُوسف بَاشَا، واستَولَى بَكر صُوبَاشِي عَلَى الحُكمِ فِي بَغداد، فَأَرسَلَ الشَّاه عَبَّاس إلى بَكر صُوبَاشِي حَاكِم بَغداد حينئذٍ عَدَدًا مِن الرَّسَائِل يَطلب مِنهُ تَسلِيمَ مَفَاتِيح بَغداد لَهُ، وأَرسَلَ مَعَ الرُّسلِ هَدايَا وعِمَامَة قِزل بَاش تَكرِيمًا لَه، واعتبَرَهُ مِن المُقَرَّبين منهُ، لَكِنَّ بَكرًا قَتَلَ رُسُل الشَّاه عَبَّاس وَوَطِئَ عَلَى العِمَامَةِ، لِأنَّ صِلَتَهُ بِالدَّولَة العُثْمَانِيَّة لَم تنقَطِع وَمَا زَال مُوَالِيًا لِلدَّولَة العَلِيَّةِ، لِذَا تَمَّ تَثبِيتُهُ عَلَى حُكمِ مَدِينَة بَغداد.

هَجَمَت قُوَّات الشَّاه عَبَّاس سَنَةَ (١٠٣٢هـ - ١٦٢٣م) على بَغدَادَ لَكِن دُونَ جَدوَى، واستَمَرَّت المَعْرَكَةُ وَلَم يَستَطِعْ دُخُول بَغداد، مِمَّا دَفَعَ الشَّاه عَبَّاس إلى اللُّجُوءِ إلى الحِيلَةِ والمَكرِ، فَخَاطَبَ ابنَ بَكرٍ مُحَمَّدًا واستَمَالَ مُحَمَّدًا لِمَكرِهِ، فَاتَّفَقَا عَلَى المُشَارَكَةِ فِي الاستِيلَاءِ عَلَى بَغداد، مُقَابِلَ أن يُعَيِّنَهُ حَاكِمًا لِبَغداد بَعدَ إقصَاءِ أَبِيهِ، وكَانَ الاتفَاقُ أن يَفتَحَ مُحَمَّد بنُ بَكر أَبْوَابَ القَلعَةِ لَيلًا، وبِالفِعلِ قَامَ بِتَنفِيذِ هَذِهِ الخِيَانَة حَسَبَ اتِّفَاقِهِم، ودَخَلَ الجَيْشُ الصَّفَوِي مِن بَابِ القَلعَة، وقَتَل عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الجُنُودِ الَّذِينَ فَقَدُوا السَّيْطَرَة عَلَى المَدِينَة بِسَبَبِ مُبَاغَتَةِ العَدُوِّ، وَوَقَعَ بَكر صُوبَاشِي فِي الأسرِ، فَأَمَرَ الشَّاه عَبَّاس بِوَضعِهِ فِي قَارِبٍ مَلِيءٍ بِالزِّفتِ والكِبرِيت وإشعَالِ النَّارِ فِيهِ لَيلًا وَسَطَ نَهرِ دِجلَةَ لِيَرَاهُ النَّاس انتِقَامًا منهُ.

أمَّا مُحَمَّد بنُ بَكر صُوبَاشِي الَّذِي خَانَ أبَاهُ فقد كَانَ يَنتَظِرُ السُّلطة بَعدَ مَوتِ أبِيهِ فَفَاجَأهُ الشَّاه عَبَّاس بِإرسَالِهِ إلى خُرَاسَان ثُمَّ قَتَلهُ خَوفًا مِن أن يَثْأَرَ لِأَبِيهِ.

بَعدَ احتِلَالِ الشَّاه عَبَّاس لِبَغداد وتَثبِيتِ حُكمِهِ وَاصَلَ حَرَكَتَهُ نَحوَ الشَّمَال، فَقِسمٌ مِن قُوَّاتِهِ واصَلَ نَحوَ كَركُوك بينَمَا وَاصَل قِسمٌ آخَر صَوبَ المَوصِل.

وَصَلَت أخبَارُ احتِلَالِ أجزَاءٍ مِن الأَرَاضِي العِراقِيَّة إلى مَسَامِعِ السُّلطَان مُرَادٍ الرَّابع، فَأصدَرَ أوَامِر إلى حَافِظ بَاشَا حَاكِم دِيَار بَكر، بِتَجهِيزِ الجَيشِ والتَّحَرُّكِ نَحوَ بَغداد ومُدُنٍ عِراقِيَّةٍ أُخرَى، لِتَحرِيرها مِن يَد الصَّفَويين ومُطَارَدَتِهم نَحوَ إيرَان، فَتَقَدَّمَ حَافِظ بَاشَا عَلَى رأسِ جَيْشٍ كبيرٍ واستَولَى عَلَى كَربلَاءَ والحِلَّة، ثُمَّ اتَّجَهَ صَوبَ بَغدَادَ فِي عَام ١٠٣٤هـ، لَكِن سَارَعَ الشَّاه عَبَّاس فَأَرسَلَ الإمدَادَاتِ العَسْكَرِيَّة إلى قُوَّاتِهِ فِي بَغدَاد، مِمَّا أطَالَ المُنَاوَشَات بِينَهُم إلى سَبعَةِ أشهُرٍ، دُونَ تَحقِيقِ أي نَصرٍ لِلطَّرَفَين، مَمَّا أجبَرَهُم على الصُّلح مِن جَدِيد عَلَى أسَاسِ الاعتِرَافِ بِسُلطَةِ الشَّاه عَبَّاس عَلَى بَغداد والأمَاكِنِ المُقَدَّسَة العِراقِيَّة.

اختَارَ الشَّاه عَبَّاس حَفِيدَهُ سَام مِيرْزَا بنَ صَفِي مِيرْزَا بن الشَّاه عَبَّاس، وَلِيَّ عَهدٍ لَهُ وَوَرِيثَهُ الشَّرعِي بَعدَ مَمَاتِهِ وَسَمَّاهُ بِاسمِ الشَّاه صَفِي الأوَّل.

تَدَهوَرَتْ صِحَّةُ الشَّاه عَبَّاس بَعدَ إصَابَتِهِ بِمَرَضِ الصَّفرَاء، مما أَدَّى إلى موتِهِ سَنَةَ (١٠٣٨هـ - ١٦٢٩م) أي بَعدَ خَمسِ سَنَوَاتٍ مِن عَهدٍ مُبرَمٍ مَعَ الدَّولَة العُثْمَانِيَّة، ودُفِنَ فِي مَكَان مجهُول (لَا يُعرَفُ مَكَانُ دَفنِهِ الحَقِيقِي)، عَاشَ سِتِّينَ سَنَة، وحَكَمَ ثنتَين وأربَعِينَ سَنَةً، وحَكَمَ بالحَدِيدِ والنَّارِ وكَانَ جَبَرُوتًا عَلَى المُسلِمِينَ، آذَاهُم فَترَةً طَوِيلَةً مِن حُكمِهِ حَتَّى أخَذَ الشُّهرَةَ والرِّفعَة فِي رُبُوعِ العَالَم، وجَعَلَ مِن دَولَتِهِ حُكُومَةً مَركَزِيَّةً، ولَا ينطِقُ بِالحُكمِ غَيرُه، ولَا أَحَد يَستَطِيعُ أن يُصدِرَ الأوَامِرَ إلى الجَيش إلَّا بِإذنِهِ، مَاتَ ولَم يَبقَ مِنهُ أَثَرٌ إلَّا اسمُهُ .

قال أحمد بخش: كَانَ أكثَرُ سَلَاطِين إيرَان وبِخَاصَّة الشَّاه عَبَّاس يَحرِصُونَ على صِلَتِهِم بِمُلُوكِ أوروُبَّا أمَلًا فِي عَقدِ حِلفٍ يَعمَلُ ضِدَّ الإمبرَاطُورِيَّة العُثْمَانِيَّة، وفِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ السُّفَرَاءُ يُسَافِرُونَ إلى أورُبَّا كَانَت إيرَان تُقَدِّمُ المَزِيد مِن التَّسهِيلَات لِلتُّجَّارِالأورُوبِّين.

وعَلَى الرَّغم مِن تِلكَ الامتِيَازَات، فِإنَّ مَمَالِكَ أورُبَّا لَم تُقَدِّمْ أي مُسَاعَدَة فَعَّالَة لِمُحَارَبَةِ الدَّولَة العُثْمَانِيَّة، بَل كَانَت فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَكتَفِي بِالوُعُود، دُونَ تَنفِيذٍ لهَا، حَتَّى لَو كَانَت الدَّولَة الأورُوبِّيَّة هِي الَّتِي اقتَرَحَتْ تَقدِيمَ المُسَاعَدَة.

وإذَا دَقَّقنَا النَّظَرَ نَجِد أنَّ المُعَاهَدَات كَانَت مُنحَازَة وتَعمَل عَلَى زِيَادَةِ الرِّعَايَة لِلتُّجَّارِ النصارى، حَتَّى تَبدُو هَذِهِ المُعَاهَدَات وكَأنَّهَا بَينَ

دَولَتين إحدَاهُمَا قَوِيَّة والأُخرَى ضَعِيفَة[١].

اتَّسَمَ الشَّاه عَبَّاس بِذَكَاءٍ ومَكرٍ فَكَانَ لَا يَدخُل فِي مَعرَكَتين فِي آن وَاحِد، حَتَّى لَا يُشَتِّتَ قُوَاهُ فَيُرَجِّحُ عَقد صُلحٍ عَلَى الحَربِ، ثُمَّ ينتَهِي مِن حَربِهِ الأولى ويَهجم عَلَى عَدَوِّهِ الثَّانِي حِينَ تُتَاحُ الفُرصَة، ولَا يُهِمُّهُ إحرَاق الأَرْضِ كَامِلةً وتَهجِير مَن فِيها، كَيْ يَترُكَ لِلعَدُوِّ طَبِيعَة قَاسِيَة تُنهِكُ العَدُو، ويَعمَلُ فِي السِّرِّ والكِتمَانِ، دُونَ سَابِقَ إنذَارٍ بِمَكَانِ المَعرَكَةِ كَيْ يُفَاجِئ العَدُو.

كَانَ يَأمُرُ أحيَانًا بِقَتلِ فُلَان وهُوَ فِي مَجلِسِ الشَّراب، فَيُنَفَّذُ الإعدَامُ بِلَا مُنَاقَشَة، حَتَّى كَانَ يُخشَى الجُلُوسُ مَعَه، وكَانَ يُبَادِرُ بِقَتلِ أبنَاءِ مَن قَتَلَهُم ومُصَادَرَةِ أموَالِهِم و لَا يُبقِي لَهُم أثَرًا كَي يَأمَنَ مِن ثَأرِهِ فِي المُستَقبَل.

ومِن أعمَالِهِ المُستَهجَنَة شُربُهُ الخَمرَ فِي نَهَارِ رَمَضَان، وإلزَامُ أتبَاعِهِ فِي البَلَاط بِاحتِسَاءِ الخَمرِ وهُم صِيَام، فَيَفطِرُون خَوفًا مِن سَطوَتِهِ، ولقد قَال لِأحَد القَسَاوِسَة: (عِندَمَا تَذهَب إلى رُومَا وتَمثُل أمَامَ البَابَا أخبِره كَيْفَ شَربت الخَمرَ فِي نَهَارِ رَمَضَان وأنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي مَحضَرِ القَاضِي والمُفتِي، وكَيْفَ جَعَلت الجَمِيعَ يَشرَبُون، وقُل لَهُ إنَّهُ عَلَى الرَّغمِ مِن أنَّنِي لَستُ مَسِيحِيًّا، أنَّنِي جَدِيرٌ بِالتَّقدِيرِ والاحتِرام)[٢].

(١) من كتاب: إيرَان در زمان صَفَوِيه ص: ٢٥٣.

(٢) من كتاب: زند كَانيَ شاه عَبَّاس أول ج٢ ص٢٦٤.

وأخِيرًا كَيْ تَعرِفُوا حَقِيقَة الشَّاه عَبَّاس الأوَّل المُسَمَّى بِالكَبيرِ، انظُروا إلى مَا قَالَهُ الخَبِيثُ المَاكِر في حقِّ المسلمين وهو يَتَمَنَّى هَلَاكَ المُسلِمِين لِأنتُونيُو دِي جُوفيَا المَبعُوثَ الإسبَانِي، قال: (كَم أتَمَنَّى أن أرَى فِي أقصَرِ وَقتٍ مُمكِن، جَمِيعَ مَسَاجِدِ الأتْرَاكِ قَد تَحَوَّلَت إلى كَنَائِس، وَكُلُّ أمَلِي أن أرَى سُقُوطَ الخِلَافَةِ العُثْمَانِيَّة وخَرَابَهَا)[1].

استَطَاعَ الجَيشُ العُثْمَانِي بَعدَ مَوتِ الشَّاه عَبَّاس الهُجُومَ وتَحرِيرَ بَغدَاد ومُدُنٍ أُخرَى مِن الصَّفَوِيين وانتَصَروا عَلَيهِم عامَ (١٠٤٨هـ)، ثُمَّ ظَهَرَ نَادِر خَان الشِّيعِي لَكِن كان عنده نَزعَةُ اعتِدَال، فَأمَرَ بالتوقفِ عَن سبِّ الصَّحَابَة، فَخَفَّت حَرَكَةُ الطَّائِفِيَّة فِي البِلَادِ فَأرَاحَ العِبَادَ، لَكِن بَعدَ فَترَةٍ وَجِيزَةٍ قُتِل نَادِر خَان سَنَةَ (١١٦٠هـ).

(١) من كتاب: زند كَانيَ شاه عَبَّاس أول ج٢ ص٢١٢.

## خَاتِمَة:

أشرَقَتِ الأرضُ بِنُورِ الرِّسَالةِ المُحَمَّدِيَّةِ، وَبَزَغَت شَمسُ الإِسْلَامِ عَلَى الإنسَانِيَّة، وكُتِبَت صَفَحَاتٌ جَدِيدَةٌ مِن التَّاريخ الإسْلامي المُشرق، فَحِينَئِذٍ احتَرَقَت قُلُوبُ الكُفَّارِ والمُشرِكِينَ وَبالأخَصِّ اليَهُودُ فِي الجَزِيرة العَرَبِيَّة وَهُم أتبَاعُ شيعَةِ عَبد الله بنِ سَبأ مِن اليَمن، ثُم المَجُوس وَهُم أتبَاعُ شِيعَة الشَّيطان عَبَدَة النَّار فِي إيرَان، ثُمَّ النَّصَارَى شِيعَة الصَّلِيبيين فِي الشَّام وَالقسطَنطِينِيَّة، ولِكَي يُطفِئوا هَذا السَّيل مِن الرِّسَالَة المُحَمَّديَّة، بَدَأوا بِكَيدٍ عَلَى الإسْلَام وطَعنٍ بِالصَّحَابَةِ ومَكرٍ بِالمُسلِمِين، ولَكِن اللهَ تَعَالى يَأبَى إلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ، قَال سَبحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٢].

اضطرَّ المَجوسُ إلى الدُّخول في الإسْلَام بَعدَ أن دَمَّرَ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَملَكَة الفُرسِ المَجُوس، مَعَ المحَافَظَةِ عَلَى مَجُوسِيَّتِهم في السِّر إلى يَومِنَا هذا فَاستَغَلُّوا فُرَصَ البَحثِ في عَدَالَةِ الصَّحَابَة، ومَا كَانَت غَايَتُهُم إلَّا الطَّعن بِرَسول اللهِ ﷺ والصَّحَابَة والإسْلَام، ومَا كَانَ حُبُّهُم للحُسين رضي الله عنه إلَّا أدَاة وَوَسِيلَة لِتَبرِيرِ غَايَتِهِم.

عِندَمَا ظَهَرَ عَبدُ الله بنَ سَبأ اليَهُودِي في اليَمن ادَّعَى الإسْلام، وَزَعَمَ محَبة آل بيتِ رَسُول الله ﷺ وغَالَى فِي عَلِي رضي الله عنه وادَّعى لَهُ بِالخِلافَةِ ورَفَعَهُ إلى مَكَانَة الألُوهِيَّة.

فَلَيتَكَ تُدرِك أيَّها المُسلِم أنَّ عَبدَ الله بنَ سَبأ نَافَقَ وأرَادَ المَكرَ والتَّظَاهُر بِالإسْلامِ، لِأَنَّهُ لَم يَستَطِع الوُقُوف، وَجهًا لِوَجه أمَامَ انتِشَارِ الإسْلَام، فَأسلَافُهُ مِن بَني قُريظَة وبَني النَّضِير وبَني قَينُقَاع انقَرضُوا وخَابُوا، فَلِهذَا اتَّخَذُوا عَلِيًّا تِرسًا لَهُم، يَتظَاهَرُون بِه لِيَبسطُوا حِبَالَهُم وَيَمُدُّوا أشوَاكَهُم لِاستِغلَالِ الفرصَةِ المُلائِمَة، فَلَا علَاقَةَ لَهُم بِالوَلَاء ومحَبَّة علي رضي الله عنه وآل بَيتِهِ.

فَلْـتَعلَم أنَّ علي بن أبِي طَالب رضي الله عنه قد تبرَّأَ مِنهُم وعَذَّبَهم أشَدَّ العَذَابِ وأحرَقَهُم، يَروِي الكَشِّي في الرِّجَال بِسَنَده إلى سِنان عن أبِيهِ عَن أبِي جَعفَر مُحَمَّد البَاقِر قوله: (أنَّ عبد الله بنَ سَبأ كَانَ يَدَّعِي النُّبُوة، وزَعَم أنَّ أمِيرَ المُؤمِنين رضي الله عنه هُوَ الله، تَعَالَى الله عَن ذَلِكَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أمِيرَ المُؤمِنِين فَدَعَاهُ، وسَألَهُ فَأقَرَّ بذَلِكَ، وقَالَ: نَعَم أنتَ هُو، وقَد كَانَ ألقِيَ فِي رُوعِي أنَّك أنتَ اللهُ وأنِّي نَبِي، فَقَالَ لَهُ أمِيرُ المُؤمِنِين رضي الله عنه: ويلَكَ قَد سَخِر مِنكَ الشَّيطَان، فَارجِع عَن هَذا ثَكِلَتكَ أمُّكَ وتُبْ، فَأبَى فَحَبَسَهُ واستَتَابَه ثَلاثَةَ أيَّامٍ فَلم يَتُبْ فَأحرَقَه بِالنَّار، وقَال: إنَّ الشَّيطَان استَهوَاه فَكَانَ يَأتِيهِ ويُلقِي فِي رُوعِه ذَلك.

رِجَال الكَشِي ص٧٠ ط مُؤَسَّسَة الأعلَمي للمطبوعات كَربلَاء.

وقَال الشَّيخُ الجَلِيل الحَسن بنُ مُوسى النَّوبَختِي عَن أخبَار ابن سَبأ: فَيَذكُر أنَّه لَمَّا بَلغَ ابنَ سَبأ نَعيُ عَلي بِالمَدائن، قَال لِلَّذِي نَعَاهُ: كَذَبتَ لَو جِئتَنَا بِدِمَاغِهِ فِي سَبعِينَ صُرَّةً، وأقَمتَ عَلَى قَتلِهِ سَبعِينَ عَدلًا، لَعَلِمنَا أنَّه لَم يَمُت ولَم يُقتَل، ولا يَمُوتُ حَتَّى يَملِك الأرض.

من كِتَاب فِرَق الشَّيعَة: ص ٢٣ الشَّيخ الجَلِيل الحَسَن بنُ مُوسَى النَوبَختِي مِن أعلَام القَرنِ الثَّالِث الهِجرِي.

لَكِن غَابَت عَن المُسلِمِين هَذه الحَقَائِق مَعَ امتِدَاد الزَّمَان، فَاليَهُودُ والرَّافِضَةُ لَم يَفُوزوا ولَم يَنتَصِروا عَلَى المسلمين إلا بِمُسَانَدَة بَعضِهِم البَعض، وغُلُوّهم فِي دينِهم ودنياهم وَاضِحٌ لِلجَميع.

فَليتَك تَعلَم أنَّ الشِّيعَة الرَّافِضَة يَتبَرَّؤُون وَيُكَفِّرُون أبا بَكرٍ الصِّدِّيق وعُمر بنَ الخَطَّاب وعُثمانَ بنَ عَفَّان رضي الله عنهم جَمِيعًا، وَيفَضِّلُون أعدَاءَ الدِّين عَلَى أهل السُّنة والجَمَاعَة في العِبَادَات والمُعَامَلات.

فَأفعَالُهُم شَنِيعَةٌ ومُؤامَرَاتُهُمْ وَاضِحَةٌ لِلعَيَان فَقَد قَامَ الأمِير الأفغَانِي فِي قَندَهار مِير أُوَيس وَهُو مِن أَهلِ السُّنَّة والْجَمَاعَةِ، بِتَحرِيرِ أَرضِ قَندَهَار مِن الصَّفَوِيين عَامَ (١١٢٠ هـ)، وَكَانَ حَاكِم قَندَهَار جُورجِيًا، وقد تَم تَنصِيبُه مِن قِبَل الصَّفَوِيين مُفَضلًا عَلَى أميرٍ منَ المُسلِمِين، وَبَعدَ المَعَارِكِ تَمتِ السَّيطَرَةُ عَلَى أرضِ قَندَهَار،

لَكِنَّ الأمِير مِير أَوَيس بَعدَ التَّحرِيرِ وَافتهُ المَنِيَّةُ سَنَةَ (١١٢٧هـ)، فَتَوَلَّى المَنصِب ابنُهُ مِير مَحمُود عندَمَا كَبِر، فَتَعَاوَن مِير مَحمُود مَعَ القُوَّات الأوزبَكِيَّة، وَاستَطَاعُوا طَردَ الصَّفَوِيين المُتبَقِّين وَحَطَّمُوا الدَّولَة الصَّفَوِية وَحَرَّرُوا مَدِينَة أَصفَهَان عَاصِمة الصَّفَوِيين، وَلَم يَبقَ بِيَد الصَّفَوِيين إلا رُقعَةٌ بَسِيطَةٌ وَصَغِيرَةٌ مِن الأرضِ فِي شِمَال إيرَان، فَتَقَدَّم مِير مَحمُود لِتَحرِير هَذِهِ البُقعَة الصَّغِيرَة، لَكِن الشَّيعَة الصَّفَوِيين دَبَّرُوا مَكِيدَة وَتَعَاوَنُوا مَعَ الرُّوس، وَتَقَاسَمُوا أَرَاضِيهم مَعَ النَّصَارَى أَعدَاء الدِّين، وَذَلِك لِبُغضِ المُسلِمِين وخشيةِ سيطرتِهم وَانتِقَامًا مِنهُم، رَغمَ أَنَّهُم كَانَوا فِي أَيَّامِ ضِعفِهِم، وَمِن غَيظهِم فَضَّلُوا النَّصَارَى عَلَى المُسلِمِين وَلَم يَسمَحوا لِمِير مَحمُود بِبَسطِ نُفُوذِه عَلَى الأَرَاضِي الإسْلَامِيَّة، بَل تَنَازَلُوا لِصَالح النَّصَارى الرُّوس، لَكِن استَطَاعَ الأفغَان مَعَ استِمرَارِ المَعَارِك وَالجِهَاد تَحرِيرَ أَرَاضِيهِم وَالتَّغَلُّب عَلَى أعدَاء الدِّين، والمُحَافَظَة عَلَى مَذهَبِهم السُّنِّي وَتَطهِير البِلاد إلى اليَوم مِن الصَّفَوِيين، إلا قِلَّة قَلِيلَة مِن قَبَائِل الهَزَارَة تَمَسَّكُوا بِتَشَيُّعِهم.

استَمَرَّتِ الدَّولَة الصَّفَوِية فِي مَنطقَة أَذَربَيجَان وَإيرَان وَالعِراق قَرَابَة ٢٤٠ سَنة وَنَشَرُوا التَّشَيُّع، وَسَبَقَهُم دُول أُخرَى مَحَلِّيَّة ظَهَرَت فِي المَنطِقَة مِثلَ دَولَة المُشَعشَعِين فِي الأحوَاز وَالسَّربدارية فِي خُرَاسَان وَدُولَة السَّادة المَرعَشِيَّة فِي مَازِندَران وَ أُخرَى دُوَل كُبرى مِثلَ

الدَّولة الفَاطِمِيَّة وَالبُويهِيَّة، وَكان أَشَدُّهُا هي الدَّولَة الصَّفَوِيَّة التي طَبَّقت مَا كَتبَه وَنَظَّرَهُ أسيَادُهُم فِي القَرن الرَّابع الهِجرِي، حَيثُ قَامَت بتَطبيق فِعلِي لِلأفكَارِ الشِّيعِيَّة، كَمَا عُرفوا بتَعَامُلِهم بِأيَادِي خَارِجِيَّة مع البُرتُغَالِيين والإنكِليز والرُّوس والمجَر وَالفرَنسِيين ضَدَّ المُسلِمِين، وَقَد سَهَّل الفرنسيون لِلإيرَانِيين احتِلَالِ مَسقَطَ سَنَةَ (١٧٠٨م) فَالتَّارِيخ يَشهَدُ على كَيدِهِم فِي المَاضِي وَالحَاضِر الحَالِي، فَهُم لَم يُمَانِعوا حَتَّى الجُلوس مَعَ إسرَائِيل المُحتَلة لأرضِ فِلسطِينَ وَالاتِّفَاق مَعَهُم عَلَى طَاوِلَة المُفَاوَضَات لِإخضَاعِ المَنطقَة تَحتَ سِيَادَتِهم، فَأينَ نُصرَة القُدس وَأينَ نُصرَة فلَسطِين، وَأينَ الشَّيطَانُ الأكبَر الذِّي يُرَدِّدُون لَيلَ نَهَار أنَّهُم أعدَاؤهُم.

فَمَعلُومٌ عَبرَ التَّارِيخ أَن صِيغَة تَفكِيرِهِم وَسُلُوكَهَم وَاحِدة لَم تتَغَيَّر عَبرَ الزَّمَان وَالمَكَانِ، فَعندما يشعرونَ بِالوَهنِ وَالضَّعفِ يستعملونَ أُسلُوبَ التَّقِيَّةِ وَالمَظلُومِيَّة، ويُنادونَ بِالاعتِدَالِ بِالسُّكُونِ وَالتَّآخِي وَالتَّقرِيبِ وَالوحدَة الدِّينِيَّةِ وَالوَطَنِيَّة إلى آخِرِهِ مِن المُسَمَّيات الفَارِغَة التي تخدُمُ مَصَالِحَهُم، لَكِن الحِقدَ وَالحَسَدَ دَفِين عِندَهُم، إذَا تَمَكَّنُوا ضيقوا على المُسلِمِين وَطَغَوا وَبَغَوا وَتَمَادَوا فِي حُقُوقِهِم، فَلَا تُفهَم حَقِيقَة هَذِه الطَّائِفةِ إلا عِندَ الرَّخَاء، فَهُم مُتَمَرِّدونَ عَلَى العَدَالةِ، وَيَدَّعُون أنَّهُم ظُلِمُوا على مدى أربَعَةَ عَشَرَ قَرنًا، فَهُم طَامَّة كُبرَى عَلَى المُسلمين ومَأساةٌ لِلعَالَمِ الإسْلَامِي.

فَعَبرَ العُصُور لَم يَنتَمِ الشِّيعَةُ لِلدَّولَةِ اجتِمَاعِيًّا ولَا دِينِيًّا، فَهُم أبنَاءُ طَائِفَةٍ يُؤمِنُونَ بِالمَرجِعِيَّة أكثَرَ مِن إيمَانِهِم بِدَولَةٍ تحمِيهِم سَوَاءً مَحَلِّيًّا أو إقلِيمِيًّا، فَالانتِمَاءُ الطَّائِفِي عِندَهُم أوثَقُ مِن إيمَانِهِم بِالانتِمَاءِ لِلدَّولَةِ وإن كَانَت شِيعِيَّة، لِذَا تَشعُر بِأنَّ عِندَهُم ازدِوَاجِيَّة، فَهُم يَرضَونَ بِالذُّلِّ تَحتَ مظَلَّةِ دَولَةٍ شيعِيَّةٍ ولَا يَرضَونَ بِعِزٍّ تَحتَ دَولَةٍ سُنِّيَةٍ وإن كَانَت عِلمَانِيَّة ولِيبرَالِيَّة، فَهُم لَا يَعبَؤونَ بمَا فِي محُيطِهِم مِن الخَرَابِ والدَّمَارِ مَا دَامَت المَرجِعِيَّة قَائِمة عَلى رُؤوسِهِم، ويُقَاتِلُونَ كُلَّ مَن أرَادَ الاقتِرَابَ مِن مَصَالحِهِم المَذهَبِيَّة، ويَشعُرُونَ بِالمَظلُومِيَّة وإن مَلَكُوا السُّلطَةَ والدَّنيَا، لِأنَّ عُقدَةَ المَظلُومِيَّة تَحكُمُهُم، ويَرَى أحدهم كُلَّ مَن حَولَهُ أصحَابَ مُؤامَرَةٍ عَلَيهِ، ويَجعَلُ مِن المَظلُومِيَّة بَابًا لِنَشرِ التَّشَيُّع والمذهبيَّةِ ويَستَخدِمُ إمكَانَاتِ الدَّولَة والقُوَّةَ العَسكَرِيَّةَ والمَنَاصِبَ المَدَنِيَّة لِفَرضِ مَذهَبِهِ، ولَا يَنتَمِي لِلدَّولَة إلَا بِالقَدْرِ الَّذِي يَخدُم مَصَالحَهُ الطَّائِفِيَّة، فالأولَوِيَّة عِندَهُم للطَّائِفَية المَذهَبِيَّة.

فَاهتِمَام إيران بِالعِرَاق وَأفغَانِستَان يعود لِتَارِيخ قَدِيم، لِأنَّهُ سَبَق وأن فَشِلَت محُاوَلَاتهُم لِإخضَاع المَنطِقَة تَحتَ جَنَاح الشِّيعة، لِذا يحاوِلُونَ بِكُلِّ إمكَانياتِهِم عَرقَلَة سَير الأُمَّة، وصَدَّ سَبيلِ وحدَتِهم واستِغفَالِهِم عَن الطَّرِيق، وصَد نهَضَة الأُمَّة كَي يَحجُبَ الخَيرَ عن البَشَرِيَّة.

لَقد وَصَلَت إيرَان عَبرَ التَّارِيخ إلى مَا هي عَلَيهِ اليَوم، بِقُوَّة السِّلاح وَالقَتلِ وَالتَّشرِيدِ والتَّرحِيلِ بِالمَلَايين، لذَا انتَشَرَ التشيع قَسرًا، على

حساب مذهب أهل السنة والجماعة، لِعَدَمِ تَمَكُّنِهِم من مُمَارَسَة حُقُوقِهِم في العِبَادَات والمُعَامَلَات، مُقَابِل تَمَتُّعِ النَّصَارَى وَالأرمَن وَاليَهُود حَتَّى زَردَشت بِكَامِلِ حُرِّيَّتِهِم سَوَاءً فِي العِبَادَات أو المُعَامَلات، ويُسَانِدُون إيران لِلَعبِ دَورٍ هَام وَكَبِير فِي المَنطِقَة.

نَرَى فِي المَنطِقَةِ أنَّ حِقدَهُم شَملَ كُلَّ القَومِيَّات والأجنَاس سَواءً أكانوا أفرَادًا أم جَمَاعَات ودُوَلًا، لَكِن عَلَى غَيرِ مَذهَبِهِم وطَائِفَتِهِم، فَلَقَد عَانى منهم المُسلِمُون كَمَا رَأينا عَبر التَّاريخ مِن الخِلافَةِ الرَّاشِدة ثُم العَبَّاسِيَّة ثُم السَّلجُوقِيَّة ثُم العُثمَانِيَّة وَالأُوزبَكِيَّة وَالأفغَانِيَّة، وَفِي يَومِنَا هَذا مَا زَالَت مَنطِقَة الشَّرق الأوسَط تعاني مِن شَرِّهِم، كَمَا أنَّ جَمِيع أطيَافِ المُسلِمين مُتَضَرِّرونَ مِنهِم، سَواءً أكَانَوا مِن العَرَبِ أو الأترَاكِ أو الأفغَانِ، حَتَّى الإيرَانِيون لَم يَنجُوا مِن جَرِيمَتِهِم، وَلو كَانَ فَارِسيًّا إن لَم يَكُن عَلَى مَذهَبِهِم، وَالقَول الفاصِل عِندَهم هُو التَّشَيُّع، فَمَهمَا كَانَت مَكَانَة الرَّجل سَواء أكَانَوا رِجَال دين أو رِجَال سِياسَة، عِلمَانِيًّا كَانَ أو لِيبرَالِيًّا أو خَبِيرًا علميًّا، أو جَاهَلًا وطالحًا لَم يَسلَم مِن بَطشِهِم، وَمَا نَرَاه اليَوم لَيسَ بِبَعِيد عَن المَاضِي المُظلِم وبأسِهم المُنَظَّم، فَهُم امتِدَادٌ لَهُم لِإحيَاء التُّرَاث الصَّفَوِي التَّوَسُّعِي، وَهُو مَزِيجٌ مِنَ الفِكرِ الشِّيعِي وَالحلم الفَارِسِي لِتُعِيد الأمجَادِ المَجُوسِيَّة، لِتَمرِيرِ مَنهَجِهِم التَّارِيخِي، فيَستَخدِمُون الأُسلُوب الهَادِئ وَالبَطِيء إن كَانَوا عَلَى ضَعفٍ، وإذَا تَمَكَّنُوا وَغَلَبُوا استَحوَذَ عَلَيهِم أُسلُوب العُنف، فَالفِكرُ الدَّمَوِيُّ حَاضِر فِي طَبعِهِم،

فَإذَا حَانَت الفُرصَة كَشَّرُوا عن أنيَابهم ومزَّقوا أقربَ النَّاسِ إليهِم، لِذَا يَجِب الانتِبَاه وَالحَذَر مِنهُم، فَعَلَى الحُكَّام وَالمَحكُومِين وَالعُلَمَاء وَالعَامِلين وَدَوَائِر الأمن وَصُنَّاع القَرَار وَجِهَات الأمر بِالمَعرُوف وَالنَّهِي عَن المُنكَر وَالمُفَكِّرِين وَطَلَبَةِ العِلمِ عَلَيهِم جَمِيعًا التَّنبِيه وَالإيضَاح وَكَشف الغِطَاء وَرَفع السِّتَار عنهم لِيَعلَم النَّاسُ حَقِيقَتَهُم، وَمَا يُرى فِي الإعلام وَموَاقِعِ التَّوَاصُلِ مِن الفضَائِح والشَّعوذَاتِ غَير بَعِيد عَن الأنظَار، وَالوَاقِع الحَاليّ يظهر حَقِيقَتَهُم، فَالتَّارِيخُ خَيرُ دَلِيل يُفصح عَن طُمُوحِهِم وَتَفكِيرِهِم وَعَقليَّتِهِم القَومِيَّةِ وَالشُّعُوبِيَّة، فَالجَهْلُ بِعَقِيدَتِهم وَأفكَارِهِمُ التَّوَسُّعِيَّةِ هُو بِمَثَابَةِ موتٍ بَطِيء لِجَمِيع العَالَمِ الإسْلَامِي، لِذَا يَجِب على العُلَمَاءِ وَالمُثَقَّفِين وَالسَّاسَةِ مَعرِفَة الخَطَر القَادِم، فَعِندَمَا تُشرق الشَّمس عِندَهُم لا يَرحَمُون الصَّغِير ولا الكَبِير، فَكَيف نَضمَن وراء ظُهُورِنَا إذَا كَانَ العَدُوّ أمَامَنا، فَعَلينَا أن نحذر مَرَّات عَدِيدَة فِي كُل رِباط وثَغْرٍ مِن خِيَانَتِهِم، إذَا تَعَرَّت صُدُورُنَا أمَام الأعدَاء وانكَشَفت ظُهُورُنَا لِلغَادِرين والمَاكِرِين، وهَذَا صَلَاح الدِّين الأيُّوبِي فَضَّل مُحَارَبَة الرَّافِضة العُبَيدِيين قَبل النَّصَارى الصَّلِيبيين.

قَرَأنَا عَبرَ التَّارِيخ مَا عَانَى المُسلِمون مِنهُم، فَهُم دَاءٌ عُضَال فِي الجَسَدِ يَجرِي مَجرَى الدَّم، فَهُم يَمكُرُون بالمُسلِمِين إذ يَقُولُون أنَّ العَدُو الأكبَر وَالأخطَر هُم اليَهُود وَالعَدُو الصَّلِيبي وَالصهيُونِي، لَكِن نَسوا أو تَنَاسَوا عِندَمَا تَحَالَفُوا مَعَ أمرِيكَا وَبرِيطَانِيا لإسقَاط العِرَاق

وَأَفغَانِستَان، أمَّا دَعوَاهُم أنَّ شِيعَة اليَوم غَيرُ شِيعَة الأمس فبَاطِل، مَا هُو إلَّا خدَاع للجِيل الجَدِيد، وَبِالأخَصِّ الشَّبَاب، فَهُم فِي غَفلَة عَن تَاريخ أجدَادِهِم، فَفَضَائِح عَقِيدَتِهِم يبيِّن مَا هُم عَلَيهِ اليَوم وَيعكِس فَسَادَهم الدِّينِي والأخلاقِي، وَهُم لا يخجلون من قولهم: أنَّ اليَهُودي وإن كَانَ كَافِرًا أفضَل مِن السُّنِّي وَإن كَانَ مُسلِمًا، وَيُصَنِّفُون المُسلِمين على طَبقَات وَأصنَاف مُختَلِفَة وَتَسمِيَات مُزَيّفَة، لِتَشتِيت الصَّف السُّنِّي بِجَمِيع أطيَافِه، مَرَّةً بِمَذهَبِهِم وَمَرَّة بِقَومِيَّتِهِم، فَيا أيُّهَا السُّنِّي اللَّبِيب لَا تَغفَلْ عَن عَقِيدَتِك، فَحَقِيقَتُهُم ظَاهِرَة لِلعِيَان وَمَنهَجهُم وَاضِح لِلعَوَام، فَالسُّنَن الكَونِيَّة وَالتَّارِيخِيَّة وَالطَبِيعة الإنسَانِيَّة تستَوجِب عَدَم التَّغَافُل والتَّهاوُن عَمَّا صَنَعُوا، فَهُم يُجِيدُون اختِرَاق الجَمَاعَات وَالأحزَاب وَالطَّوَائِف وَالحَرَكَات وَالمَذَاهِب وَالأوقَاف وَرُؤَسَاء العَشَائِر وَالطُّرُق وبِالذَّات الصُّوفِية مِنهَا، وَأمّا إذَا فَشِلُوا فِي الاختِرَاق اتَّهَمُوهُم بالدعشنة وَالوَهَّابِيَّة والنَّاصِبِيَّة والإرهَابِيَّة وأنزَلُوا بِهِم أشَدَّ العَذَاب، وَالخَطَر كُلُّ الخَطَر مِمَّن يَتَمَايَل مِن السُّنَّة وَيَتَمَلَّق لَهُم وَيَتَحَالَف معهم لمصلَحَتِه الشَّخصِيَّة وَالمَنَافِع الدُّنيَوِية الزَّائِلَة.

نَرَى أهلَ البَاطِل يَجهَدُون ويَتَعَذَّبُون لِنُصرَةِ بَاطِلِهم، لَا لِغَايَة شَرِيفَة يَطلُبُونهَا ولَا آخِرَة يَنَالُونهَا، ونرَى صَاحبَ الحَق يتكَاسَل في النُّصرَة لإخوَانِهِ، ولَا يَتحَمَّل مَشَاق الدَّعوَة وإظهَار العَدَالَة، ويَترَاخَى فِي الدَّعم بِالمالِ والبَدَنِ والقَولِ والفِعل.

فالتَّحذِير مِن فِتنَةِ المَجُوس وَالبَاطِنِيين وَالصَّفَوِيين جَاء مِن قَبل مِن بَعضِ العُلَماء القُدَامَى، مِمَّن رَأوا زَيفَ عَقِيدَتِهِم كَالإمَام مُحَمَّد الغَزَالِي وعَبد القَادر الكَيلانِي عبدالقادر بن طاهر بن محمد البغدادي التميمي وإبرَاهِيم صِبغَة الله الحَيدَري وهو مِن عَائِلة صفَوِيَّة وصَاحِب كِتَاب عِنوَان المَجد.

ومِنَ المُعَاصِرِين بَعضُ المَشايِخ الذَّي صَرَّحَ بَعدَ أعوَام مِنَ المُؤتَمَراتِ ودَعَوَاتِ التَّقرِيبِ بَينَ المَذَاهِبِ الإسلَامِيَّة أنَّ هَؤلَاءِ لَا يُمَثِّلُون مَذهَبًا وإنَّمَا هُم فِرَق ضَالَّة، وقَد حَسِبنَاهُم إخوَةً لَنَا لَكِن ضَلَلنَا بَعدَ سِنين، وإنَّهُم ضَحِكُوا عَلَى أهلِ السُّنَّة وأنَّنَا لَم نَكسَبْ مِنَ التَّقرِيبِ فِي مُقَابِل ما كَسبُوا، وأنَّ مَشَايِخَ الحِجَازِ كَانُوا أنضَجَ وأبصَرَ مِنَّا بِهِم، وقَد حَذَّرُوا مِن فِتنَتِهم وطَالَمَا وَقَفَ المُغَفَّلون ضِدَّ عُلَمَاءِ الحِجَازَ يُدَافِعُ أحدهم عن الفِرَقِ الضَّالّة، لَكِن ظهر وعُلِمَ بَعدَ حِين أنَّهُم لَيسُوا نَاصِحِينَ وَإنَّمَا كَذَبَة، وَقَد رَأَينَا المَجَازِر التِي ارتُكِبَت فِي سُوريا بِيَدِ المِيلِيشيات الطَّائِفِيَّة المَجُوسِيَّة الصَّفَوِية بِاسماء لخداع المُسلِمِين، ومَا أرَادُوا مِن التَّقرِيب إلَّا تقرِيبَ السُّنة إلى الشِّيعَة ولَيسَ العَكس، وإنَّهُم كَسَبُوا مَكَاسِبَ فِي فَترَةَ التَّقرِيب هذه، ولَم يَحصل السُّنَّة منها عَلَى شَيء ولِيَعلَمَ الشِّيعَة العَرب أنَّهُم مُغَفَّلون وأنَّهُم آلَةٌ بِيَدِهِم وَأنَّهُم مُعَرَّضُونَ لِخَطَر التَّدمِير والتَّحطِيم والتَّشتِيتِ فِي أي لَحظَة، مَهمَا كَانَت مُوَالَاتُهُم، فَهَدَفُهُم أن تَحيَا فِكرَةُ زَعم الأُسطُورَةِ الفَارِسِيَّةِ، أمَّا فِكرَة حُبِّ الفُرس للحُسَين فَبَاطِل، مَا أرَادُوا إلا زَرعَ الفِتنَةِ وَشَقَّ

صُفُوفِ المُسلِمِينَ ومَا بُكَاؤهُم إلَّا لِضِيَاع مُلكِهِم، ولَو قَدَّرَ اللهُ أن القضاء على ملكهم على يد علي بنِ أَبِي طَالِب رضي الله عنه لَطَعَنُوهُ به ولَعَنُوهُ كَمَا يَطعَنُون ويَلعَنُون عُمر بن الخَطَّاب رضي الله عنه.

فَالرَّابِط الرُّوحِي بَين العَجم والعَرب هُو الإِسْلام، فَأي شَرخٍ بَينَهُم يُفرِّقُهم، وَيَخدمُ ويَنفَعُ مصالحَ المُعتَدِين، فَالسِّيادَة الحَقِيقِية لِلحُكمِ مردها للشَّرع الإسْلامِي الذي يفصل بِين المُسلمين لا الطَّوَائِف المَذهَبِيَّة، فَالقِيَم الإسْلَامِيَّة هي اللُّبُّ والنَّوَاة فِي التَّعَامُلِ بَينَ النَّاس، والعَدَالَة هِي مَفصَل بَينَ الخَير والشَّرِّ فيَجِب إحيَاؤها بَين جَميعِ الأُمَّة، والإسْلَام الَّذِي ادَّعُوهُ والمَنهَج الذَّي ألبَسُوهُ لِبَاسَ الزُّورِ، تَبيَّنَ لنا أَنَّهُ يُمَزِّقُ الصُّدور ولَا يَعرِفُ الرَّحمَة، حَتَّى العِبَادَات لَيسَت لله وإنَّمَا لِلسِّياسَةِ، عِبَادَة أشبَه بِالوَثَنِيَّة والتَّوسُّع في الاستِيلَاءِ عَلَى الأراضِي الإسْلَامِيَّة عَلى حِسَابِ أهلَ السُّنَّة، وليسَتْ محاوَلاتُهُم لضَمِّ العِراق كَقِطعَةٍ تَتبَع لهم ببَعيدٍ.

لقد غَالوا فِي التَّعَامُلِ وخَرَجُوا بِأفكَارٍ لَا صِلَةَ لها بِالدِّينِ تخدِشُ عِمَادَ الإسْلام، ونَادوا بِالتَّسَامُحِ زُورًا وتَلفِيقًا ونَالُوا مِن المُسلِمين وأثارُوا الفِتَنَ المَذهَبِيَّة وأجَّجُوا الصِّرَاعَات فَأصبَحُوا خَوَارِجَ هَذا العَصرِ، وتَكَالَبُوا عَلى الأُمَم وأَصبَحُوا دَاءً فِي قَلبِ العَالَمِ الإسْلامي.

فَليُبصِر الغَافِلونَ ولَا يَنخَدِعُوا بِكُلِّ مَن حَمَلَ اسمَ الإسْلام لِدَولَةٍ ولَا اسمَ اللهِ عَلَى حِزبٍ، ولَا مُسَمَّيَات آلِ البيتِ عَلَى مِيلِيشيات،

فَمُسَمَّيَات بَرَّاقَة كَثِيرة تَخدَع النَّفسَ وتُشَكِّكُ الأذهَان، وتزِيغُ قَلبَ مَن يَتَّبِعُها، ولَا تُرضِي إلَّا أهوَاءَ النَّاسِ، فَالحَيَاة مُتَقَلِّبة فَليُدرِك أهلُ البَصِيرَة أنَّ مَن يَتَّبِع غَيرَ سَبيلِ المُؤمِنِينَ فَقَد ضَلّ وأَضَلّ.

وكَم خسر المسلمون في الفُتُوحاتِ بسبب مَكرِهِم، ومَعلُوم أنَّ الخِلافَةَ العُثمَانِيَّة اضطُرَّت إلى الانسِحَاب مِن مَشَارِفِ فِيَنَّا عَاصِمة النِّمسَا بَسَبَبِ غَدرٍ مِن ظُهُورِهِم وخنجَر مِن خَلفِهِم، فَرَحِم الله المُؤَرِّخ التُّركِي مِصر قَدِر اُوغلُو (المُتوفى ٢٠٢٢م) الذَّي قَال عَنهُم: (مَن لَم يَعرِف إيران إلى هَذَا الوَقت، فَليَتَعَرَّفْ عَلَى حَقِيقَةِ الهوِيَّة الإيرَانِيَّة ولِيَفتَحْ بَصِيرَتَهُ، فَلَا يُوجَد عَدُو أكبَرُ لِتُركِيا ولَا لِلعَالَمِ الإسْلَامِي ولَا لِلأُمَّةِ الإسْلَامِيَّة أخطَر مِن أتباع الهوية الشيعية، لِأَنَّهُم يصعب التفَاهُمَ مَعَهُم، وهَدَفَهُم الوَحِيد قَهر أهلِ السُّنة، فَهُم لا يُعَادُون أمَرِيكَا ولَا غَيرَها وهُم أشَدُّ مِنَ الكُفَّار والصَّلِيبِيين بَطشًا ولايَصدُقُون، فَاختَبِئوا إذا رَأيتُم الشَّمس تُشرق مِن إيرَان بمظَلَّات، واحمُوا أنفُسَكُم، لِأنَّ شَمسَهُم تَحتَوِي عَلَى أشِعَّة ضَارَّة، لَا نَفعَ فِيها)، فُهُم عُنصِرِيون إلى دَرَجَة أَنَّهم يُمَجِّدُون عِرقَ الفُرس ويَحتَقِرُون العَرب وإن كَانوا عَلَى مَذهَبِهِم وشِيعَتِهِم.

وأخِيرًا نَرَى عَبرَ التَّارِيخ أنَّ صُدُورَهُم مَا صَفَت مِنَ الغَيظِ عَلَى المُسلِمِين، حَتَّى وإن أقاموا مُؤتَمَرَات التَّقَارُب فَلَم يَلبَث الوِفَاقَ أن تَكَدَّرَ صَفَاؤه، فَإنَّ مَا زَادَ عَنِ الحَدِّ انقلَبَ إلى الضِّدِّ فَالأحدَاثُ تتكَرَّر

والأشخاص مختلفون والأفكار وَاحِدَة وتَتكَرَّر نَفسُ الأخطَاء فَتَنكَشِفُ الحَقِيقَة، فَالعَاقِل مَن اتَّعَظَ بِغَيرِهِ فَكَثِيرًا مَا نَجِدُ المُحتَل يَدَّعِي حُرِّيَّتَنَا وحُقُوقَنَا ويُظهِرُ دِينَنَا لِيُسَهِّلَ أمرَ احتِلَالِنَا ويَستَغِلُّ ضَعفَنَا، كَالمَرأة النَّاعِمَة تَستَغِلُّ نُفُوذَهَا فِي أناس كَمَا تَستَغِلُّ فِي الأُمَرَاء، ومن الضَّروري لِمَعرِفَةِ المُقَابِلِ التمكن من توحيد الصفِّ ضدَّ العَدُوِّ وعَدَم الانبِطَاحِ تَحتَ سَطوَتِهِم، فَإنَّ الفُرصَ والنِّعم لَا تَستَمِر لِأحَد، فَجَنَائِزُ الغَد تَتَنَعَّمُ اليَوم، فالحَذرَ منَ التَّغافُلِ فإنَّ الإنسَان كَالسَّيف ذُو حَدين يعمَلُ للخَير كَمَا يعمَلُ لِلشَّر، يَنفَعُ ويَضُرُّ مَثَلَ الفُرسِ والتُّرك، فَمِنَ الفُرسِ مَن قَدَّمَ عُلَمَاءَ ومَشَايِخَ للمُسلِمينَ، ومِنهُم مِن ضَلَّ وأضَرَّ بِالإسلَامِ، وكَذَا مِنَ التُّرك مِن نَشَرَ التَّشَيُّعَ ومِنهُم مِن صَد عَن فَسَادِهِم وضَلالِهِم.

تَمَّ بِحَمدِ اللهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاللهُ تَعَالَى أعلَمُ بِالصَّوَابِ وَإلَيهِ المَرجِعُ والمَآب، وصَلَى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّد وعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ تَسلِيمًا كَثِيرًا، والحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين، ولَا حولَ ولَا قُوَّةَ إلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيم وَهُوَ نِعمَ المَولَى و نِعمَ الوَكِيل.



# فهرس المحتويات







## هذا الكتاب

لم يَعُدْ يتقبَّلُ الفُرسُ سقوطَ دولتهم التَّاريخيَّةِ بيدِ الصَّحابَةِ الكرامِ ﷺ ولم يستطيعوا إعادةَ أَمجادهم لقوَّةِ دولةِ الإسلامِ؛ فاضطروا لاستخدامِ المكيدَةِ والخِداع بكلِّ أنواعها وأَساليبها.. فاستَخدَمُوا الطَّوائِفَ الأَقلِّيَّةَ وفِرَقًا مُختَلفةً؛ ليتَغَلغَلوا في صُفُوف المسلمينَ.. واتَّخَذُوا ذَريعَة المظلُوميَّةِ لتَدميرِ المسلمينَ وغَزوِهِم فِكريًّا وعَقائِدِيًّا!

وكانَ بابُ التَّشَيُّعِ الإماميِّ؛ مِنْ أَشدِّ الأَخطارِ على الإسلامِ، وشَرَّ سلاحٍ لمُحاربَتِهِ؛ فكانوا على مدارِ التَّاريخِ مأْوًى يلجأُ إليهِ كلُّ مَنْ أرادَ هدمَ الإسلامِ، ولم يُشاركُوا المسلمينَ في جهادهم لنشرِ الدِّينِ الحنيفِ ولو بشِبرٍ! ولم يتأَخَّرُوا في مُصالحَةِ القُوى المُعَادِيَة للمُسلمِين؛ فكانَوا كالخَنجَرِ المَسمُومِ في ظهرِ الأُمَّةِ.. ومَنْ كانَ يريدُ إدخالَ تعاليمِ آبائِهِ؛ مِنْ يهوديةٍ ونصرانيَّةٍ وزردشتيَّةٍ وهنديَّةٍ؛ يتَّخِذُ حُبَّ آلِ البيتِ ستارًا يضعُ وراءهُ كلَّ ما شاءَتْ أهواؤُهُ..

فهُم كَموجَةِ البَحر العاتيَةِ الَّتي تأْتي خُفيَةً لتُدَمِّرَ كُلَّ شَيْءٍ، وتتركَ وراءَها رُكَامًا ودَمارًا.. والتَّاريخُ يُعيدُ نَفسَهُ..

فهذا الكتابُ يضعُ أَمامكَ - أيُّها المسلم اللَّبيب - تاريخَهمُ الأَسودَ بحقِّ الإسلامِ والمسلمين..

نسأَلُ الله تعالىٰ أَنْ ينفعَ بهِ قارئَهُ، وكاتبَهُ، وناشرَهُ؛ إنَّهُ وليُّ ذلكَ والقادرُ عليهِ.

هَدَفنا نَشْرُ الإسلَامِ الحَق

الغرباء
guraba

